كتاب الهلال

متفرجون أم لاعبون

فى الساحة الدولية

سيد قاسم المصرى





سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٢٩ - ربيع أول ١٤٢٤ هـ - مايو ٢٠٠٣ م

No - 629 - MA - 2003

اسعار بيع العدد فئة ٥ جنيهات

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس -
الكويت ١٢٥٠ فلساً - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١,٢ دينار
عمان ١,٢ ريال -
سرا ٤ فرنكات .

darhilal@i

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن علي الدعفس

المملكة العربية السعودية

متفرجون أم لاعبون
فـــى
الساحة الدولية

السفير :
سيد قاسم المصرى

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

تقديم

متفرجون ... أم لاعبون

الغالبية العظمى من دول العالم يجلسون فى ساحة السياسة الدولية فى مقاعد المتفرجين.. يشاهدون اللاعبين الأصليين ولكنهم لا يشاركون فى اللعبة إلا بالهتاف والتهليل أو الصفير والشغب وفى لعبة السياسة الدولية يقل عدد اللاعبين الأصليين عن فريق كرة القدم كثيراً.. وساحة اللعبة الدولية شأن أى ساحة رياضية مقسمة إلى درجات أولى وثانية وثالثة .. ويتباين سلوك المتفرجين فى هذه " العوالم " الثلاث _ فبينما يسود النظام والهدوء والنظافة مدرجات الدرجة الأولى _ نجد أن مدرجات العالم الثالث " الترسو " يسودها الهرج والمرج وانعدام النظام وتحكمها العاطفة ويميزها الصوت العالى وتظن أنها بهذا السلوك إنما تشارك فى صنع النتيجة.

وستجد أيها القارئ الكريم وأنت تقرأ هذه الصفحات أننا فى بعض المواقف لم نكن متفرجين بل فاعلين ومشاركين ولكنه فعل أقرب إلى دور الممثل على خشبة المسرح يؤدى دوراً

كتبه المؤلف وصاغه المخرج، ويتدرج تحت هذا الإطار أدوار كثيرة مثل استدراج الجيش المصرى لإنهاكه فى حرب اليمن تمهيداً لحرب ١٩٦٧ التى كانت شهادة الميلاد الحقيقية لإسرائيل ، ومثل استدراج صدام حسين إلى غزو إيران والتورط فى حرب ضروس دامت ثمان سنوات وأنهكت قوى الدولتين ثم استدراجه مرة أخرى للقيام بدور البطولة فى أم المعارك لكى يلدغ من نفس الجحر اللدغة القاتلة ..

وستجد أيها القارئ الكريم أننا فى مواقف أخرى لم ننعم حتى بمقعد المتفرج بل كنا فى سبات عميق (راجع كلام شامير وزير العدل الإسرائيلى فى حكومة مناحم بيجن من واقع الجلسة الرسمية لمفاوضات الحكم الذاتى التى عقدت بالإسكندرية فى ٢٦ سبتمبر ١٩٧٩ - صفحة (٩٢).

والناظر الآن إلى الساحة الدولية يعرف من هم المتفرجون ومن هم اللاعبون، إلا أنه كما تدور الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس فكذلك تدور المقاعد بين اللاعبين والمتفرجين فيصبح لاعبو الأمس هم متفرجي اليوم ومتفرجو الأمس هم اللاعبين الرئيسيين فى عالم الغد، "ففى بداية الألفية الثانية - كما يقول ماكس رودنبك - كانت العملة الذهبية المسكوكة فى الفسطاط هى عملة التعامل الدولى

وكانت الألفاظ التجارية المستخدمة فى أسواق القاهرة هى ألفاظ التعامل العالمى تماماً مثل لغة ماديسون آفينيو ووول ستريت الآن وكان استخدام التعبيرات المشتقة من اللغة العربية مثل الشيفون والآزور دليلا على الرقى، وكان «الصك» الذى يكتب فى دمشق يصرف فى الصين فكلمة الصك هى أصل كلمة الشيك Cheque أو تشك Check المستخدمة فى اللغات الفرنسية والإنجليزية ، وبينما كان الورق غير معروف فى أوروبا ، كانت محلات الحلوى فى القاهرة تلف الحلوى بالورق الرقيق"(١) ، ويقول وول ديورانت فى موسوعة الحضارة.. " لقد دخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية .. نتيجة احتكاك الأوروبيين بالمسلمين خلال الحروب الصليبية وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع فى بلاد الإسلام.. وكانت البوصلة والطباعة موجودتان فى بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ولعلها انتقلت إلى أوروبا فى أعقاب تلك الحروب .. ويبدو أن الأوروبيين كانوا أشد جهلا من أن يعتنوا بالشعر والعلوم والفلسفة العربية ولهذا فإن تأثر الغرب بهذه المؤثرات

---

(1) Max Rodenbeck, Cairo, The City Victoripus

الإسلامية جاء عن طريق أسبانيا وصقلية لاعن طريق اتصالهم بالمسلمين فى هذه الحروب .. ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب فى بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون فى الحملة الصليبية الأولى لهزهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم.

أردت بهذا الاستطراد أن أقول أن ما نحن فيه ليس فطرة فطرنا عليها وإنما هو عارض من عوارض تداول الأيام بين الناس وأننا وإن كنا نجلس الآن حيارى نشاهد ولا نشارك فإن ذلك ليس قدراً مقدوراً بل هو من صنع أيدينا وبإمكاننا أن نغيره إذا غيرنا ما بأنفسنا.

وقد وجدتنى أتذكر هذه المفارقات وأنا أفكر فى مقدمة لهذه الأحداث التى دونتها فى الصفحات التالية

وليس الغرض من هذا التدوين هو كتابة تقارير حول هذه الأحداث التى عاصرتها مشاركاً أو مراقباً ، كما أنها ليست تأريخاً لهذه السنوات وإنما هى ومضات ولقطات لبعض المشاهد التى تركت أثراً فى ذاكرتى .. وقد يكون فى تدوينها ما يدفع القارئ إلى إعمال النظر فى هذا الجانب أو ذاك .

والله الموفق،،

الفصل الأول:

الدبلوماسية المصرية
بين
الممكن والمستحيل

١ - البداية
٢ - نيويورك والتقاط الأنفاس
٣ - زيارة إلى ديكسيلاند

(١)
البداية
إطلالة على العالم الصغير

مغاغة فى أحد أيام عام ١٩٤٣ :

بالنسبة لى كان يوماً عادياً من الأيام الرتيبة المتشابهة التى تكر الواحد تلو الآخر بلا جديد .. حيث كنت أمضى معظم الوقت متفرجاً على ما يدور حولى شارد الذهن متأملاً بطئ الكلام قليله على عكس أخى فراج الذى يكبرنى بأقل من عامين فقد كان لا يستقر فى مكان ولا تستقر الفكرة فى رأسه حتى يشرع فى تنفيذها بينما أنا منقاد له فى انبهار .. جاء يوماً من المدرسة جزلاً مستثاراً لما علمه عن نظرية الجاذبية ولا أدرى ما الذى جعله يعتقد أن عليه رسالة إبلاغ ما علم إلى المجتمع المحيط به بدءاً بشيخ الجامع .. فدلف إلى المسجد وجلس إلى الشيخ بعد الصلاة يحدثه عن نظرية

الجاذبية وكيف أنها القوة التى تجعل البرتقالة مثلا تسقط على الأرض، فأخذ الشيخ ينظر إليه نظرات ثاقبة متفحصة قلقة ومرتابة قبل أن يجيبه:

- البرتقالة سقطت لأنها طابت فوقعت ..

- ولماذا لم تتجه إلى أعلى ..

- لأنها ثقيلة ..

- وما الذى جعلها ثقيلة ..

فضاق الشيخ ذرعاً بهذا الحوار وقال له أسمع يا ولد .. أن لم تنته لأقولن لوالدك .. وثار الشيخ فانتبه الجالسون فى المسجد فتوجه إليهم بالحديث قائلاً أنهم يعلمونهم الكفر فى هذه المدارس .

***

لم يكن لنا أقران نتحدث إليهم أو نلعب معهم .. فبعد العودة من المدرسة يضمنا هذا " الكمبوند " الشاسع الذى تتوسطه " السراية " والبيت الكبير والبيت الصغير وديوان الرجال وحديقة فاكهة .. وكل ذلك محاط بسور عال ينتهى ببوابة كبيرة على يسار الداخل منها يوجد المسجد وبه مقبرة جدى المصرى السعدى باشا الذى كان من مناضلى ثورة

سنة ١٩١٩ ومن مؤسسي حزب الوفد.. والمسجد له بوابتان أحداهما تفتح على الداخل والأخرى على الخارج .. ثم على اليمين اسطبل الخيول ومرآب السيارات ثم باب لدخول الرجال وآخر للنساء تأكيداً للفصل التام بين الجنسين بما فى ذلك الخدم ..

كان ذلك هو كوكبنا الأرضى نطل منه على العالم الخارجي من خلال القراءة فهي ملاذنا الوحيد ولاشئ سواها صحف الصباح مثل الأهرام والأساس جريدة الحزب السعدى وصحف المساء مثل البلاغ والمقطم ومجلات المصور والاثنين والدنيا والمقطتف والمختار والهلال وسلسلة اقرأ .. وكان اهتمامنا شديداً بمتابعة أنباء الحرب العالمية الثانية ومعركة العلمين ثم استسلام المانيا وأذكر عنوان الأهرام فى ذلك اليوم الذى أوقعنى فى حيرة .. حيث كان يقول استسلام المانيا دون قيد أو شرط وحيرتى كانت حول عبارة " بلا قيد " .. فاذا كانت المانيا قد أصبحت حرة بلا قيود فكيف يكون ذلك هزيمة لها .. بعد انتهاء الحرب تركز كل اهتمامى على شأن داخلي وهو الانتخابات البرلمانية عام ١٩٤٥ فقد كانت أحداثها من القرب بحيث يدور بعضها أمام أعيننا وكنت

أرقب اللوريات وهى تنقل " الناخبين " من لجنة إلى لجنة للادلاء " بأصواتهم " وكان الجو جو فرح ومواقف طريفة يتحاكون بها ويضحكون مثل الذى أخطأ فذكر أن اسمه محمد يس بدلاً من محمد ياسين حيث أن ياسين كانت مكتوبة بالرسم العثمانى هكذا " يس " ..

كان خيال القائمين على تأليف الأسماء محدوداً فلجاؤا إلى أسماء الساسة والمشاهير ولما فرغت قائمة المشاهير استعلموا أسماء الموظفين المحليين حتى أن وكيل النيابة الذى أشرف على التحقيق فى شكاوى التزوير وجد اسمه ضمن قائمة الناخبين.

• كان الحدث الكبير التالى الذى يقفز إلى ذاكراتى وأنا أخط هذه السطور مفزعا حقا فقد كان وباء الكوليرا الذى بدأ من قرية القرين بالشرقية وانتشر فعم الدلتا ووصل إلى القاهرة وزحف فى اتجاه الصعيد وكان ذلك عام ١٩٤٧ .. وقد ثبت بعد ذلك أن هذا الوباء الفتاك قد بدأ من بئر مياه اختلطت مياهها بميكروب المرض.. وهناك الكثير من الأسئلة والشكوك التى تحوم حول هذا الموضوع .. وتوقيت حدوثه قبل إعلان ميلاد دولة إسرائيل وبدء حرب فلسطين بأقل من عام ..

ثم مكان اندلاع المرض على أطراف التجمعات السكانية لشرق الدلتا وهى أقرب نقطة تجمع سكانى لفلسطين فى ذلك الوقت حيث كانت سيناء لا تزال صحراء جرداء خالية من السكان .. وقد أنهك هذا الوباء مصر بالفعل ودام انتشاره قرابة العام وراح ضحيته عشرات الآلاف وأحدث ارتباكا شديداً فى جميع المرافق والمؤسسات

***

ثم جاءت حرب ١٩٤٨ .. أذكر جيداً عنوان جريدة الأهرام فى ذلك اليوم.. كان بيتاً من الشعر .. أو بالأصح شطراً من البيت المشهور فى قصيدة المتنبى :

" السيف أصدق إنباءً من الكتب "

ثم توالت أنباء " الانتصارات " التى الهبت حماستنا .. كنا نلتهم صحف الصباح وننتظر قطار الساعة السابعة مساء لاختطاف صحف المساء وقراءة أنباء المعارك فى اللد والرملة وبير سبع والفالوجا ...الخ

***

هذا الاهتمام المبكر بالشئون السياسية والقضايا العامة الذى ولدته ظروف النشأة كان له أثر كبير فى رسم المسار

الذى أراده الله لى .. كـانت أمى التى أدين لهـا بما يعـجـز قلمـى عن التـعبـيـر عنه .. تأمل أن ترانى مـهندسـاً كـأخيـهـا الدكتور عبـد الرحمن السـاوى الذى كان أول عـميد مـصرى لكلية الهندسـيـة ولقب فيما بعد أبو المهندسين .. ولكن شاءت إرادة الله غير ذلك ..

متفرجا على العالم الكبير

مرت السنوات بعد ذلك سراعاً حتى انهيت دراستى الجامعية وتقدمت لامتحان وزارة الخارجية واجتزت الاختبارات التحريرية والشفوية وعينت بالسلك الدبلوماسى بدرجة ملحق فى أبريل عام ١٩٦١ .. ولم يكن مضى على التحاقى بالسلك الدبلوماسى سوى عام واحد عندما أبلغت إننى عينت نائباً للقنصل المصرى فى كادونا عاصمة شمال نيجيريا .. وكان سنى فى ذلك الوقت أربعة وعشرين عاماً وكنت تواقا للمغامرة ولكن لم أكن أعرف شيئا عن كادونا هذه ولا أين تقع؟ .. فأخذت أبحث فعلمت أن لدى السفارات الأمريكية بالخارج تقريراً مفصلا عن كل مدينة يسمى الـ Post Description Report فأجريت بعض الاتصالات حتى حصلت على موعداً بالسفارة .. وهناك أطلعونى على التقرير الخاص بكادونا ووجدته مفصلا أشد التفصيل ..

فلازالت أذكر منه العبارة التى تصف الجو بأنه ربيع دائم نظرا لارتفاعها عن سطح البحر والعبارة التى تصفها بأنها مدينة لها سحر المدينة الأمريكية الصغيرة .. ثم بعد ذلك أدق التفاصيل عن جميع ما قد يحتاجه الإنسان فى شئونه المعيشية حتى إصلاح الأحذية (لا توجد) ..

أمضيت فصل الصيف في دورات تدريبية .. الأمن والرمز والشئون القنصلية .. حتى حان موعد الرحيل يوم ٤ سبتمبر عام ١٩٦١ فأقلتنا الطائرة النفاثة الكوميت الحديثة في ذلك الوقت إلى لاجوس حيث أمضينا الليل ومنها إلى كادونا فى صباح اليوم التالى فى طائرة داكوتا صغيرة ذات محركين وقد أخذت السحب الكثيفة تتقاذفها صعوداً وهبوطاً فى رحلة دامت قرابة الأربع ساعات أى ما يكاد يساوى رحلة الطائرة النفاثة من القاهرة إلى لاجوس ..

هبطت الطائرة في مطار كادونا فى منتصف النهار .. وهو مطار صغير جداً وكان مطاراً نهارياً فى ذلك الوقت أى غير مستعد لاستقبال الطائرات ليلاً .. وقد وجدت كادونا كما وصفها التقرير .. خضرة زاهية وجو ربيعى وفيلات متناثرة وهدوء شديد ونادى صغير يعرض أفلام ١٦ ملى مرتين فى

الاسبوع وذو كورت تنس واحد ولاشئ غير ذلك .. لا فنادق ولا مطاعم ولا دور سينما ولا تليفزيون ولا مسارح ولا مكتبات ولا صحف .. فإن صحف العاصمة لاجوس تصل بعد ٢٤ ساعة إذا وصل القطار فى موعده .. أحسست أنى وصلت إلى آخر العالم وشعور شديد بالغربة اعترانى .. فالغربة ليست بقدر بعد المسافة بل بقدر الشعور بالوحدة .

أنا اعتقد أنه لا توجد غربة الآن فى عنصر العولمة والفضائيات والاتصالات السريعة _ فأنت الآن تستطيع أن تشاهد تليفزيون بلدك فى أى مكان من العالم وتقرأ الصحف الوطنية والعالمية وأن لم تجدها مع باعة الصحف ففى الانترنت وتحصل على الأطعمة الوطنية وتتصل تليفونيا فى دقائق فى حين أننى لم أستطع أن أجرى مكالمة تليفونية واحدة مع القاهرة طوال فترة خدمتى التى قاربت على الثلاث سنوات اللهم إلا مرة واحدة وبعد جهد واتصالات وصداقات جعلت مدير التليفونات الإنجليزى يصلنى بالقاهرة من خلال لندن كخدمة خارج المألوف .

وسارت الحياة بطبيعة رتيبة خالية من الأحداث ومليئة بالقصص الخيالية التى نسمعها من الجالية اللبنانية

الصغيرة، يتهددنا الخوف من الأمراض الأستوائية فكنت أضع أقراص الكينين المضادة للملاريا مع الملح والفلفل على مائدة الطعام حتى لا أنسى تناول أحد أقراصها يوميا ونحرص على ارتداء ملابس تغطى كامل الجسم إذا خرجنا فى نزهة خلوية خوفا من بعوض التسى تسى الذى يسبب مرض النوم .. وطبعا الحرص على غسيل الخضروات والفاكهة بالبرمنجنات وغلى مياه الشرب "وفلترتها".

لم يكن فى كادونا ما يستدعى افتتاح قنصلية عامة .. فلم يكن هناك جالية مصرية بل لم يكن هناك سوى مواطن مصرى واحد كان يعمل ميكانيكى سيارات فى جنوب السودان ومنها اتجه إلى تشاد ثم إلى شمال نيجريا .. ولكن نظراً لأن أفريقيا كانت طوال الحقبة الاستعمارية مغلقة على مصر حيث كان المستعمرون يخشون من تواجد النفوذ المصرى وازدات هذه الخشية بعد قيام ثورة يوليو فى مصر التى فتحت أبوابها لجميع الثائرين والمعارضين .. لذلك فعندما حصلت نيجيريا على استقلالها فى أكتوبر ١٩٦٠ سارعت مصر بافتتاح سفارة لها فى لاجوس ، ولما كانت نيجيريا فى ذلك الوقت تحكم من مدينة كادونا عاصمة

الشمال فقد قررت مصر فتح قنصلية عامة لها في كادونا .. بالرغم من عدم وجود جالية مصرية هناك .. وذلك لكى تعمل كفرع سفارة معتمد لدى الساردونا أحمدو بللو زعيم حزب الأغلبية الحاكم فى لاجوس .. حيث كانت نيجيريا تنقسم إلى ثلاثة أقاليم .. شمال وغرب وشرق .. أكبرها هو الإقليم الشمالى ذو الغالبية المسلمة .. وكان كل إقليم يتمتع بالحكم الذاتى وبحكومة وبرلمان .

وقد قنع أحمدو بللو زعيم حزب مؤتمر شعب الشمال N.P.C الذى فاز بالأغلبية المطلقة فى الأنتخابات بتولى رئاسة الحكومة الأقليمية بالشمال وأصبح مقره كادونا بينما أوفد نائبه الحاج أبو بكر تافاوا باليوا ليرأس الحكومة الفيدرالية فى لاجوس.

أخذت أشغل وقتى بالقراءة فعلمت أن شمال نيجيريا تعرف أيضا باسم " سودان نيجيريا " حيث أطلق الجغرافيون إسم السودان على كل منطقة السافانا التى تمتد من ضفاف نهر النيل شرقا حتى المحيط الأطلنطى غرباً وقد كان شمال نيجيريا قبل انشاء الخط الحديدى الذى ربطه بساحل الأطلنطى الجنوبى .. كان يتخذ من البحر المتوسط

منفذا له عبر طرق القوافل فى الصحراء والتى كان من أشهرها طريق أسيوط _ كانو.، وأهم القبائل التى تقطن شمال نيجيريا هى قبائل الهوسا والفولانى .. وهى تنتشر فى خمس أو ست دول مجاورة حتى أن معظم العامة لا يعرفون إلا انتمائهم القبلى .. ولا يعيرون انتمائهم الوطنى الشئ الكثير بل أن بعضهم لا يعرفون اسم الدولة التى يعيش فيها .. وقد سألت أحدهم عن بلده فقال لى أنا هوسا (أى من قبيلة الهوسا) من أرض فرنسا وبعد كثير من الأسئلة استنتجت أنه من النيجير أى أنه يعرف فقط أنه من قبيلة الهوسا ولا يميزه عن زميله الهوسوى الآخر إلا أنه يعيش فى أرض تحكمها فرنسا والأخر فى أرض تحكمها بريطانيا !!

وقد استذكرت هذه التجربة بعد أربعين سنة حيث انتخبت فى إحدى لجان الأمم المتحدة فى مجال حقوق الإنسان وهى لجنة مناهضة التعذيب وعرضت علينا شكوى من إحدى منظمات حقوق الإنسان غير الحكومية مفادها أن إحدى دول شمال أوروبا تقوم بترحيل طالبى اللجوء السياسى الذين رفضت طلباتهم إلى دول غير دولهم الأصلية والسبب فى ذلك هو أن طالبى اللجوء عادة ما يصلون دون أوراق رسمية أو

جوزات سفر ولكى تحدد هذه الدولة الاسكندنافية جنسياتهم فقد لجأت إلى خبراء اللغة واللهجات الأفريقية لهذا الغرض .. وقد اعترضت على هذا الاجراء لأن الشخص من أبناء القبائل الأفريقية الكبرى قد يتحدث نفس اللغة واللهجة المنتشرة فى خمس أو ست دول على الأقل .

وقد أوصت اللجنة بالفعل الدولة المعنية بعدم الاعتماد على اختبارات اللغة كوسيلة وحيدة لتحديد هوية الشخص أو انتمائه العرقى .

ولقد رزءت نيجريا بخطوب عظيمة منذ استقلالها ولم تدم التجربة الديموقراطية فيها سوى سنوات قلائل ثم أندلعت فيها الحرب الأهلية الكبرى التى عرفت باسم حرب بيافرا حيث عمد الاقليم الشرقى فيها والذى تسكنه قبائل الأيبو إلى إعلان الاستقلال باسم بيافرا ودامت هذه الحرب ثلاثون شهراً .. وبانتهاء حرب بيافرا انتهى النظام السياسى القائم فى نيجريا والذى كان ثلاثى التشكيل .. ثلاثة أقاليم كبرى .. بثلاثة أحزاب كبرى كل حزب يعتمد على قبيلة كبرى .

انتهى هذا النظام وتم الغاء الاقاليم الثلاثة وأعيد تقسيم نيجريا إلى ولايات عديدة ونقلت العاصمة من لاجوس التى

تقع فى إقليم قبيلة اليوروبا الغربى إلى مكان متوسط فى وسط نيجيريا بعيداً عن مراكز ثقل القبائل الثلاثة الكبرى حيث تم تحويل قرية صغيرة إلى العاصمة الجديدة باسم أبوجا .. وكثيرون ينحون بالائمة على الاستعمار الذى قسم أفريقيا بقسوة على أساس المصالح ودون مراعاة للروابط القبلية، ولكن رب ضارة نافعة .. فهذه القبائل التى توزعت على عدة دول ستكون أحد عناصر وروابط الوحدة الأفريقية الكبرى والله غالب على أمره .

(٢)

نيويورك .. والتقاط الأنفاس

١- نيويورك في يوليو ١٩٦٦

عدت إلى مصر فى صيف عام ١٩٦٤ والتحقت بإدارة الهيئات والمؤتمرات الدولية التى تولى رئاستها فى ذلك الوقت " المستشار " إسماعيل فهمى (نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فيما بعد) وكان توليه لهذا المنصب الهام على صغر سنه ودرجته حديث الوزارة لعدة شهور .. علمت أن إسماعيل فهمى _ رحمه الله _ هو الذى طلبنى للعمل معه فى هذه الإدارة الهامة حيث كان قد تم توزيعى على الإدارة الأفريقية باعتبارى عائداً من أفريقيا .. وقد سبق لى العمل معه قبل نقلى إلى كادونا وقد تعلمت منه الكثير وإعتبره أستاذى الأول وكان له الفضل فى تزكيتى للعمل فى البعثة المصرية الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك .. وهكذا يشاء العلى القدير

أن أنقل من أصغر البعثات المصرية فى الخارج إلى أكبرها وأهمها على الإطلاق.

وأول ما يلحظه المراقب لإسماعيل فهمى فى أسلوب عمله .. هو الدقة المتناهية فى اختيار الألفاظ والتعبيرات كتابة وشفاهة فليس لديه مترادفات أو بدائل .. كل كلمة أو عبارة لها معنى خاص ومدلول معين .. كما أن الدبلوماسية لدية حسابات دائمة ورياضة عقلية كالشطرنج .

وكنا فى ذلك الوقت ننازل الدول العظمى بأدواتنا ومصادرنا البسيطة لذا كان اعتمادنا على العقول الثاقبة والمهارات الفريدة التى كان إسماعيل فهمى مثالاً واضحاً لها .

شعرت بعد وصولى إلى نيويورك كأننى فى فيلم سينمائى تم إسراع تتابع صوره فجأة بعد أن كانت على الوتيرة البطيئة فى مصر وعلى وتيرة شديدة البطئ فى شمال نيجريا .. فها هى الدنيا الجديدة بألوانها الزاهية وضجيجها الصاخب وحرياتها الصارخة .. والوفرة التى تصيبك بالتردد والعجز عن الاختيار .. ها أنت يا ابن الجنوب قد ألقى بك فى هذا اليم المتلاطم الأمواج وعليك أن تبحر فى قاربك الصغير بنفس وتيرتهم وتعد نفسك لبدء دورة الجمعية العامة للأمم

المتحدة في يوم الثلاثاء الثالث من شهر سبتمبر وقبل ذلك عليك أن تؤمن مسكنا مناسباً على وجه السرعة وتؤثثه بما يليق وتحصل على سيارة ورخصة قيادة إلى آخر متطلبات الاقامة والاستقرار .

والدبلوماسى لدى الأمم المتحدة مهما صغرت درجته له وضع مميز يختلف عن زميله بالسفارات والقنصليات _ فهو فى نيويورك مندوب دولة ممثل لدولته فى إحدى اللجان وسواء كان منفرداً أو بصحبة زميل له أكبر درجة .. إلا أن كلاهما Delegate .. وبهذا فلديه قدر كبير من حرية التصرف فهو يمضى نهاره فى الأمم المتحدة ولا يعود إلى مقر البعثة إلا ليرسل برقيات المعلومات المفتوحة للقاهرة دون الحاجة إلى عرضها على أحد بما فى ذلك السفير الذى لا يراها إلا فى اليوم التالى..

أخذت اغترف من كل ما أراه .. فقد بدأت الجمعية العامة وبدء معها أكبر استعراض سياسى فى العام .. ١٢٠ دولة هم أعضاء الجمعية العامة فى ذلك الوقت .. اجتمعوا فى مكان واحد لمدة ثلاثة شهور متصلة يتناقشون فى جميع مشاكل العالم والحرب الباردة مستعرة بين المعسكرين تراها لحماً

ودماً وتسمع صرخاتها وتشاهد مناوراتها بينما الأروقة تعج بالمشاهير وغير المشاهير .. وممثلو حركات التحرير الذين أصبح بعضهم رؤساء دول فيما بعد يتسكعون فى الطرقات يستجدون الحديث مع المندوبين .. واختتمت الجمعية العامة أعمالها بحفل كبير حضره مشاهير نجوم هوليود أمثال بيتر أوستينوف الذى كان يقدم الحفل ويقلد المندوبين من الجنسيات المختلفة والموسيقار الشهير يهودى منوهيم والممثلة جين فونتين ..

انتهت الجمعية العامة الأولى فى حياتى والأخيرة التى كان لها تلك البهجة التى تلحظها بين طيات السطور ، فقد جاءت الدورات التالية بعد حرب ١٩٦٧ وقديما قالوا " ما أسعد الشعوب ذات التاريخ الممل " .. أما نحن فإن تاريخنا حافل بالأحداث الجسام وأبعد ما يكون عن الممل..

٢- نيويورك في أحد أيام شهر مايو ١٩٦٧ :

فى ذلك اليوم من شهر مايو عام ١٩٦٧ كنا _ نحن صغار الدبلوماسيين ببعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة، أنا والسكرتير الثالث حمدى ندا .. السفير ومساعد وزير الخارجية فيما بعد جلوساً أو وقوفاً بمكتب السفير المرحوم

محمد عوض القونى نعرض عليه البريد والبرقيات، عندما دق جرس التليفون وكان المتحدث هو السفير هانز تابور مندوب الدانمارك ورئيس مجلس الأمن لذلك الشهر وهو صديق حميم للمرحوم القونى وكانوا يتنادون بالأسماء الأولى هانز ومحمد.. لذلك لفت انتباهنا ارتفاع نبرة الصوت وتصاعد حدتها.. وكان تابور يبلغه أنه تقرر عقد جلسة لمجلس الأمن صباح الغد لكى ينظر فى مشروع قرار بسيط للغاية ويقتصر على مطالبة أطراف النزاع- مصر وإسرائيل- بالإمتناع عن اتخاذ أى إجراء خلال فترة زمنية محددة (خمسة عشر يوماً على ما أذكر) كفترة لإلتقاط الأنفاسBreathing Spell لإتاحة الفرصة للعمل الدبلوماسى وإن إسرائيل ستمتنع عن إرسال سفن عبر مضيق تيران خلال هذه الفترة حتى لا "تختبر" قرار مصر بإغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية.

وقد جاء رد السفير القونى عنيفاً وغاضباً ما هذا الذى تفعلونه.. إننا لم نكن نتوقع ذلك من دولة صديقة كالدنمارك.. أنكم تضخمون الأمور وتضفون على الموقف جواً دراماتيكيا.. وتلعبون فى أيدى أولئك الذين يجهزون المسرح للحرب.. ما

الذى حدث حتى يستدعى انعقاد المجلس.. فقوة الطوارئ الدولية سحبت وأخلت مواقعها وتحركت القوات المصرية داخل أراضيها واحتلت المواقع التى كانت تشغلها القوة وعاد الوضع كما كان عليه فى السابق ونحن فى حالة حرب مع إسرائيل ومن الطبيعى ألا تمر الملاحة الإسرائيلية فى المياه المصرية..

لم نسمع رد هانز تابور ولكن من السهل تخمينه. فتمركز قوات الطوارئ الدولية فى سيناء وفى مضيق تيران بالذات وما نجم عنه من فتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية كان جزءاً من التسوية التى تم بموجبها انسحاب إسرائيل عام ١٩٥٧ من سيناء.. وكانت أبواق الدعاية الإسرائيلية والإعلام الأمريكى تصم الأذان بأن الحصار البحرى عمل من أعمال العدوان وليس إطلاق الرصاصة الأولى أو اختراق الحدود هو فقط العدوان.. وكان الموقف مشتعلاً بالفعل ولا يحتاج لجلسة مجلس الأمن لكى يصبح دراماتيكياً بل أن جلسة مجلس الأمن كانت ستتيح فرصة لإلتقاط الأنفاس فعلاً.

المهم.. انتهت المكالمة بنفس الغضب الذى بدأت به.. ولا

شك أن القونى بك وهو الدبلوماسى المحنك والمخضرم كان يعى أبعاد الموقف تماماً ولكن لا يسعه إلا أن يعكس وجهة النظر الرسمية وعقد مجلس الأمن وصدر قرار "التقاط الأنفاس" وطار به السكرتير العام أوثانت إلى القاهرة حيث قوبل خارج المطار بحشد من الجماهير وهم ينشدون "هنحارب هنحارب" وصدرت صحف نيويورك بمنشتات تقول:

المصريون يستقبلون أوثانت وهم ينشدون " نريد الحرب We Want War مسرح الحرب يتم تجهيزه طوبة طوبة ونحن نسهم بالقسط الأوفر من التجهيزات حتى يصبح العالم كله مهيئاً للحرب والمعركة قد وضحت أطرافها وضوحاً لا لبس فيه.. وتحدد الطيب والشرير (الطيب إسرائيل بالطبع التى ضخمت فى أهمية خليج العقبة كشريان حياة بالنسبة لها بالرغم من أنه لا يمثل أى أهمية لتجارة إسرائيل التى يتم معظمها مع الغرب من خلال موانئ البحر المتوسط).

وانعقد مجلس الأمن مرة أخرى للنظر فى تقرير السكرتير العام.. وأخذ العرب.. وكان عددهم ١٤ دولة فى ذلك الوقت.. يتناوبون الكلام في مجلس الأمن ولازلت أذكر بيان عدنان الباجهجي مندوب العراق وسحر البلاغة الذى جعلنا نمتلئ

بالحماسة وهو يدق منضدة المجلس ويعلن أنها ستكون حرباً ضروساً لا هوادة فيها It is going to be a total and uncompromising war.

وأعلنت مصر أنها قامت بتلغيم مضيق تيران.. وأصبحت الحرب أمراً مؤكداً.

٣- نيويورك في ٥ يونيو ١٩٦٧

كان الوقت بعد منتصف الليل بقليل فى نيويورك عندما بدأ العدوان الإسرائيلى على مصر.. إيقظنا المرحوم السفير الشافعى عبد الحميد من النوم قبل الفجر.. وكان فى ذلك الوقت أقدم مستشارى البعثة.. وبدأت الأيام الثقيلة تجرجر أذيالها وسياط أنباء الهزيمة المروعة تلهب الظهور وفتحت علينا يأجوج ومأجوج من برامج الإعلام من كل صوب وحدب.. ونصب اليهود حلقات للرقص فى الـUN Plaza أمام الأمم المتحدة.. وكان السفراء العرب يضطرون للخروج بسياراتهم من الأبواب الخلفية من بدروم الأمم المتحدة حتى لا يمرون وسط هذه الحلقات وخصصت إحدى قنوات التليفزيون الأمريكى برنامجاً فكاهياً يومياً أسمه الحرب العربية الإسرائيلية للسخرية من العرب وكان يقوم بدور

البطولة فيه الممثل الكوميدى الشهير " رد سكلييتون" وكانت المعركة داخل مجلس الأمن تدور حول قرار وقف إطلاق النار وكنا نطمع أن يتضمن القرار مطالبة للقوات المعتدية بالإنسحاب إلى مواقعها قبل بدء العمليات.. ولكن لم يعد أحد يستمع إلينا ورفضت مصر قبول وقف إطلاق النار ما لم يتضمن الانسحاب إلى أن كانِ اليوم الرابع للحرب.. تلقينا برقية من القاهرة تقول أنه "قد بدأ الهجوم المضاد ويرجى العمل على تعطيل صدور أى قرار جديد بوقف إطلاق النار " وطلب السفير القونى تسجيل أسم مصر على قائمة المتحدثين بمجلس الأمن على أن نكون أول المتحدثين فى الصباح.. وسهرت البعثة المصرية طوال الليل لهذا الغرض حيث قام فريق بقيادة السكرتير الأول فى ذلك الوقت د. نبيل العربى مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فيما بعد والقاضى بمحكمة العدل الدولية حاليا بإعداد بيان مطول... وفى صباح اليوم التالى انتشرت الأنباء بأن مصر ستلقى بياناً هاماً وقبل انعقاد المجلس بدقائق وبينما السفير المصرى والسفراء العرب يناقشون الأخبار السارة التى وردت من القاهرة.. إذا بالقاهرة على التليفون .. وعاد السفير القونى ليبلغ زملاءه

العرب أنه تلقى تعليمات بقبول وقف إطلاق النار.. كيف ذلك وهناك تعليمات مكتوبة لم يمض عليها إلا ساعات قليلة بعدم قبول وقف إطلاق النار نظراً لبدء الهجوم المضاد.. وقال قائل من السفراء العرب أن اليهود ملاعين وهم يقلدون الأصوات.. وأخذوا يشككون فى صحة المكالمة التليفونية مما حدى بالسفير القونى إلى معاودة طلب القاهرة وهو الطالب هذه المرة وليس المطلوب.. وتحدث إلى وزير الخارجية فى مكتبه بالقاهرة وعاد ليؤكد النبأ.. جلس- عليه رحمة الله _ وقلوبنا معه .. يكتب بخط يده رسالة من سطرين إلى رئيس مجلس الأمن.. " بناء على تعليمات حكومتى فإننى أبلغكم أن الحكومة المصرية تقبل بموجب هذا قرار وقف إطلاق النار رقم.." وطلب شطب اسم مصر من قائمة المتحدثين.. وصرخ أحد الصارخين العرب.. هل اليهود وصلوا إلى أسوان؟ واتجهت الاستراتيجية العربية بقيادة مصر إلى الجمعية العامة.. والتى عقدت دورة استثنائية خاصة بناء على طلب المجموعة العربية وتقدمنا بمشروع قرار به كل شئ ولا يمكن تصور صدوره إلا من جامعة الدول العربية.. وفى المقابل تقدمت المجموعة اللاتينية بمشروع قرار ينص على انسحاب

إسرائيل من جميع الأراضى المحتلة مقابل شئ واحد فقط هو إنهاء حالة الحرب End of belligerency أى لا اعتراف ولا تطبيع ولا علاقات .. وقد اجتمعت المجموعة العربية على مستوى وزراء الخارجية لبحث هذا المشروع اللاتينى.. وحضر الاجتماع عدد محدود من المعاونين كان من بينهم المستشار عبد الحليم بدوى (السفير ومندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فيما بعد).. ويمكنك أيها القارى العزيز أن تخمن بسهولة وعلى وجه الدقة سير المداولات فى هذه الاجتماعات وأساليبها .. خطب بلاغية ملؤها الحماسة والرفض.. رفض كل شئ فى مشروع القرار حتى الفقرة الديباجية التى تشير إلى المادة ٣٣ من الميثاق الخاص بفض المنازعات بالطرق السلمية .. لأن ذلك فى عرف السيد ماخوس وزير خارجية سوريا فى ذلك الوقت فخاً يقودنا إلى التفاوض مع إسرائيل .. وتوالى الخطباء .. عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر آنذاك والمحجوب وزير خارجية السودان .. كيف تقبل إنهاء حالة الحرب .. كيف نكافئ المعتدى على عدوانه .. وانتهى الاجتماع إلى رفض المشروع اللاتينى جملة وتفصيلا واتخاذ قرار بالتصويت ضده إذا

أصــــر اللاتيــن على طرحه للتصـويت وحث الدول الصديقة على التصــــويت ضـده بل واعتـبـار إصــــرار اللاتين علــى الاســـتمرار فى طرحه عملا عدائيا .

.. وجندنا كل قـوانا لإسـقـاط المشـروع اللاتينى.. وكـان الأمـر لا يحـتـاج إلا إلى ثلث الأصـوات لكى يمـتنع صـدور القـرار. وبدأت المسـاعى المكثـفـة لحـشـد هذا الثلث وهو مـا يســمى فى الأمم المتــحـدة بالثلث المعــرقل أو المانع The Blocking Third ولم يكن الأمـر صـعباً فـأصوات الدول العربية والشيوعية بالإضافة إلى بعض الدول الإسلامية تكفى. وسقط المشـروع اللاتينى وصـفـقنا جميعاً بحمـاس لسـقوطه وبالمثل سقط المشروع العربى لأنه يكن من الصعب أيضاً على الجـانب الآخـر أن يوفـر الثلث المانـع وانفض الجـمـع وقـضـى الأمر بأسلوب الرفض.. لم يكن هناك تفاوض ولا طرح لبدائل كـانت الأمــور فـى غـاية الوضــوح أبيض وأســود.. أعــداء وأصـدقـاء.. مشروع قـرار ومـشـروع مـضـاد هكذا كـانت روح العصـر وانعكاسـاته على الممارسـات الدبلوماسية ممـا جعل الدبلومـاسيـة المصرية والعربية أبعد مـا تكون عن فن تحـقيق الممكن.

وما هى إلا شهور قلائل حتى اجتمع مجلس الأمن فى نوفمبر ٦٧ وقدم المندوب البريطانى اللورد كارادون مشروعه الشهير الذى صدر فى نفس الشهر تحت رقم ٢٤٢ وبينه وبين القرار اللاتينى الذى أسقطناه بعد المشرقين..

حاولنا _ أثناء بحث المجلس للمشروع الإتصال باللاتين لنطلب إليهم _ على استحياء - إعادة تقديم مشروعهم إلى مجلس الأمن.. ولكن هيهات.. كان الأمر مختلفاً فى يونيو عنه فى نوفمبر .. ففى يونيو كان غبار المعارك لم ينقشع بعد ولم تعرف على وجه الدقة ردود الأفعال العربية وأثارها على مصالح الغرب ولذا كانت ..(صيغة إنهاء حالة الحرب مقابلة الانسحاب) هى أقصى ما يمكن تحقيقه وفقاً للحسابات الغربية فى ذلك الوقت.. أما "الآن" فى نوفمبر ١٩٦٧ فقد أستقر الاحتلال وتحددت أبعاد ردود الأفعال العربية.. ولم تكن ذات بال.. ولذلك فليس هناك سوى ٢٤٢ لذلك فعندما عرض اللورد كاردون المشروع على الوفد المصرى عرضه على أساس أن لنا خياراً واحداً بشأنه .. وهو إما قبوله كما هو دون تعديل أو رفضه Take it or Leave it .. وبعد اجراء اتصالات مع القاهرة تقرر إرسال المشروع إلى القاهرة

مع حامل حقيبة خاص حتى يعود بالتعليمات توفيراً لأقصى قدر من التأمين للمعلومات والتعليمات .. وحمل المشروع أصغر أعضاء البعثة فى ذلك الوقت الملحق محمد البرادعى (السفير فيما بعد ومدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية بفينا حالياً) وعاد بعد ٤٨ ساعة حاملاً تعليمات الموافقة .. وصدر القرار وقضى الأمر واستوت على الجودى ومضت خمسة عشر عاماً حتى تم إبعاد القوم الظالمين من "أراض" احتلت عام ١٩٦٧ وهناك من يقول أن الدبلوماسية المصرية فى الإطار المتعدد الأطراف ولدت فى غمار حرب ١٩٦٧ حيث بزغت دبلوماسية جديدة تتعامل مع دنيا الواقع وسوق المصالح التى ليس بها عدو دائم ولا صديق دائم. فقد كانت مشروعات القرارات العربية التى تقدم للأمم المتحدة فجة فى صياغتها ومليئة بالشجب والإدانة والمطالب التى يصعب على الآخرين قبولها كما أن أسلوب التفاوض مع المجموعات الأخرى لم يكن يتسم بالمرونة الكافية التى تراعى مواقف الدول الأخرى وتتفهم المصاعب الداخلية لدى بعض الدول وتطرح صياغات بديلة للإلتفاف حول هذه المصاعب دون الإخلال بالجوهر .

(٣)
زيارة إلى ديكسيلاند

أتلانتا فى عام ١٩٦٦

عندما هبطت طائرتنا فى مطار اتلانتا بجورجيا فى جنوب الولايات المتحدة كانت رأسى تزدحم بالافكار فها نحن فى أعماق الجنوب ومعقل التفرقة العنصرية ومسرح الحرب الأهلية الأمريكية ... هنا كتبت مارجريت ميتشل رويتها الشهيرة "ذهب مع الريح " التى خلدتها فيفيان لى فى رائعة أفلام هوليود الخالدة .

كانت الأسر المضيفة في انتظارنا .. مجموعة كبيرة من الأسر الأمريكية التى وقع عليها الاختيار لاستضافة شباب الدبلوماسيين من أعضاء البعثات المعتمدة لدى الأمم المتحدة كانت الأسر متباينة بعضها حديثى الزواج بلا أولاد وبعضها فى منتصف العمر والبعض من كبار السن .. وتمت عملية التوزيع والتعارف .. وكان نصيبى أسرة فى مقتبل العمر .. محاسب وزوجته وابنتيهما الصغيرتان.

جلسنا بعد العشاء نتسامر فى غرفة المعيشة .. أحدثهما عن عملي وبلدى ويحدثانى عن عملهما وبلدهما .. حدثنى صاحب الدار عن الضرائب فى أمريكا وأهوال الضرائب وكيف أن التهرب منها جريمة مخلة بالشرف وأن من أشد الطعنات التى توجه إلى مرشح لأحد المناصب العامة هو اتهامه بالتهرب من الضرائب .. إلا أنه مع ذلك فهناك وسائل كثيرة للتهرب ولا تخضع لطائلة القانون.. حتى أن أحد كبار رجال مصلحة الضرائب في أمريكا ألف كتاباً بعد خروجه على المعاش عنوانه " كيف نتهرب من الضرائب " قال محدثي أن الشهر القادم هو شهر تقديم الاقرارات الضريبية حيث تعلن حالة الطوارئ القصوى فى الشركات وفى مكاتب المحاسبين وأنه كثيراً ما يضطر إلى المبيت فى المكتب .ولذلك فهو يستأجر لزوجته كلب حراسة من النوع الرخيص الذى لا ينقل الولاء .. لفت نظرى هذا الكلام فطلبت المزيد من الإيضاح فعلمت أن الكلاب المعروضة للايجار أنواع بعضها مدرب على نقل الولاء .. وهذه غالية الثمن جداً .. حيث يحضر مندوب الشركة بصحبة الكلب إلى المنزل " ويعرف " الكلب " بأسياده " الجدد .. وهم أصحاب البيت وينصرف ..

ويبدأ الكلب فى معاملتهم على هذا الأساس .. أنهم أصحابه .. وكل من عداهم .. أعداء يجب حراستهم منه .. أما أرخص الأنواع فهو الذى لا ينقل الولاء وهذا النوع لا يوجد تفاهم معه .. فيأتى مندوب الشركة ويطلقه فى الحديقة ومنذ تلك اللحظة لا يستطيع أحد الدخول أو الخروج من المنزل لحين حضور المندوب فى صباح اليوم التالى لاصطحابه .. ضحكت زوجته وقالت أنها لن تعيد التجربة هذا العام حيث عانت كثيراً من هذا الكلب فى العام الماضى الذى حول بيتها إلى سجن ..

استطرد محدثى يقول أنت فى أمريكا تستطيع أن تؤجر (أو تشترى) أى شئ.. أنت تستطيع أن تؤجر مظاهرة حاشدة تجوب الشوارع وتهتف بما تريده أنت .. فهناك شركة مشهورة مثلا اسمها : " Dial A Demonstration أطلب مظاهرة بالتليفون " تطلب منها ما تشاء " وتفصل لك مظاهرة حسب الطلب بما فى ذلك التشكيل " الأثنى " أو العرقى للمتظاهرين .. بيض _ سود _ هنود _ لاتين . قلت وقد يحدث أن نفس المتظاهرين من أجل هدف معين اليوم قد يتظاهروا غداً ضده .. نعم ..نعم طبعاً بل أن الشركة نفسها

يمكنها أن تشكل مظاهرتين متعارضتين .. هذا ينادى بشئ وهذا ينادى بعكسه .

أضافت زوجته قائلة .. ليس فقط المظاهرات .. بل أنت تستطيع أن تؤجر ضيوفاً على العشاء .. فبعض الساسة المحليين الذين يريدون أن يظهروا بمظهر ليبرالى غير عنصرى يحرصون على أن تضم حفلاتهم بعض السود .. ولكن المشكلة أنهم ليس لديهم أصدقاء أو حتى معارف من السود وقد حلت لهم العقلية التجارية هذه المشكلة .. " ضيوف للإيجار" فما عليك إلا أن تتصل برقم معين وتطلب ضيوفك بالمواصفات التى تريدها .

قادنا ذلك إلى الحديث عن التفرقة العنصرية وإلى جورج والاس الذى التفت حوله التيارات العنصرية فى الجنوب حيث كانت ولايات الجنوب ومنها جورجيا تتنازعها التيارات العاتية لدعاة التفرقة العنصرية وكان جورج والاس قد قاد الحملة المعادية لسياسة الحكومة الفيدرالية الخاصة بالغاء الفصل العنصرى فى المدارس والجامعات وانتخب على أساسها حاكماً لولاية الاباما وأغلق أبواب جامعتها فى وجه الطلبة الزنوج ولم يرضخ إلا بعد إيفاد واشينجتون لقوات من

الحرس الوطنى.. وجورج والاس هذا هو الذى قاد انشقاقاً داخل الحزب الديموقراطى وشكل حزباً جديداً باسم الحزب المستقل وخاض انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٨ على بطاقة هذا الحزب .. محاكيا للسناتور ثرموند الذى احتفل بعيد ميلاده المائة عام (٢٠٠٢) والقيت فى هذا الاحتفال كلمات " نوستالجية" بها الكثير من الأسى والحنين على أيام التفرقة العنصرية .. ثيرموند هذا كان مرشح التفرقة العنصرية الرسمية فى انتخابات عام ١٩٤٨ ضد هارى ترومان .. حيث انسحب من مؤتمر الحزب الديموقراطى معلناً انشقاقه ومعه معظم مندوبى الجنوب وهم المنشقون الذين أصبح يطلق عليهم اسم الديكسيقراط Dixicrate أو ديمقراطيو الديكسى نسبة إلى الأسم الذى كان يطلق على ولايات الجنوب المنشقة التى كونت كونفدرالية الجنوب Confederacy ما بين أعوام ١٨٦٠ و ١٨٦٥ ولإسم ديكسى Dixie هذا قصة طريفة ترويها الموسوعة البريطانية .. فقبيل عام ١٨٦٠ أصدرت ولاية لويزيانا ذات النفوذ الثقافى الفرنسى القوى عملة مستقلة من فئة العشرة دولارات وطبعت على ظهرها بأحرف كبيرة كلمة Dix أى عشرة بالفرنسية وعندما أعلنت ولايات الجنوب انفصالها عن الاتحاد الأمريكى شاع

استخدام هذه العملة بالنطق الأنجليزى للكلمة "ديكس" ومن هنا كلمة ديكسيلاند ، وأطلق اسم ديكسى سونج dixie Song . على أغنية شعبية شاع إنتشارها وأصبحت هى النشيد القومى الذى سارت على أنغامه جيوش الجنوب فى الحرب الأهلية الأمريكية ، وعزف لحنه فى حفل تنصيب أول رئيس لدولة الجنوب الكونفدرالية ، ومن هنا أصبح اسم ديكسى مشحوناً برموز الفصل العنصرى .

أقول كان طبيعياً أن يمتد الحديث مع مضيفى الى جورج والاس ، فقال محدثى أنه شخص يخاف الله He is a god fearing man فدهشت من التعليق لعلمى أن أصحاب البيت من الديموقراطيين اليساريين ومن مناهضى التفرقة العنصرية.. إلا أن مضيفى سارع بقوله .. إذا كنت تفهم ما أعنى وقد فهمت وأسفت .. كيف يكون الشخص متديناً ويوصف بأنه يخاف الله .. وعنصريا فى نفس الوقت .. وعجبت من هؤلاء العنصريين .. كيف يقتحمون المسيحية من أروع أبوابها .. ويقحمون أنفسهم عليها محاولين تشويه أجمل أركانها وتعاليمها وهو الحب .. ويفلسفون نظريات شوهاء لايجاد أساس دينى للفصل العنصرى.. بينما المسيح عليه السلام لم يدعو فقط إلى حب الجار بل إلى حب العدو ..



الفصل الثانى :

روما .. العمر لا يكفى

عدت من نيويورك إلى القاهرة فى نهاية عام ١٩٧٠ أنا وزوجتي مهجة بعد أن أمضيت بها أربعة سنوات ونصف شاركتنى زوجتى فيها ثلثها الأخير حيث تزوجنا في صيف عام ١٩٦٩ وتسلمت العمل مرة أخرى بإدراة الهيئات الدولية التى تتولى شئون الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية .. عدت إليها هذه المرة وأنا مزود بالخبرة العملية .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. يوم العبور العظيم .. تم ضمى إلى غرفة العمليات التى تشكلت بوزارة الخارجية .. وتولى المرحوم إسماعيل فهمي وزارة الخارجية وعين المرحوم محمد رياض وزيراً للدولة للشئون الخارجية الذى طلب منى الإشراف على مكتبه .. مكثت بالقاهرة قرابة الأربع سنوات رزقت خلالها بإبنتاى .. دنيا ومريم ثم نقلت فى منتصف عام ١٩٧٤ للعمل بالسفارة المصرية فى روما ..

ويقول الإيطاليون أن العمر لا يكفى لروما Roma.. non basta una vita روما مدينة التلال السبعة والكنوز

المعمارية والكنائس والقصور التاريخية والنافورات التى أقامها فنانوها العظام فى ميادين هذه المدينة العريقة التى تراكمت فيها طبقات من الحضارة ومن الإبداع الفنى بقيت حتى الآن منذ العصور الرومانية والمسيحية والبابوية وقد طوتها روما فى إنسجام جمالى فريد .. وحتى لا يفقد هذا الكتاب طابعه فسأكتفى بتدوين انطباعاتى الأولى فى بداية الحقبة الرومانية من حياتى الدبلوماسية .

الفيرا أو جوستو

وصلت إلى روما فى الوقت الغلط .. فقد وصلت يوم ١٥ أغسطس ١٩٧٤ وهو يوافق بداية الفيرا أو جوستو التى لم أكن سمعت عنها قبل الآن .. وحتى لو كنت سمعت أن هناك عيداً تعطل فيه المصالح فى هذا اليوم فما كان ذلك سيغير شيئاً من خططى.. إلا أن الذى لم أعلمه أن الفيرا أو جوستو ليس عيداً عادياً فهو يوم يحتفل فيه أهالى روما منذ العصر الرومانى وذلك بالخروج من روما إلى السواحل والجبال وعادة ما يبدأون أجازتهم السنوية فى ذلك التاريخ وقد زادت أهمية هذا اليوم فى العهد المسيحى عندما اعتمدته الكنيسة

الكاثوليكية كيوم صعود السيدة العذراء إلى السماء -As
sumption .. وقد امتد هذا اليوم ليصبح أسبوعاً على
الأقل.. والأيطالى الذى لا يغادر روما فى هذا الوقت يحرص
على ألا يعرف ذلك أحد.. حتى أنه يغلق نوافذ بيته حتى لا
يرى منه ما يشير إلى وجوده .. ولذا فعندما وصلت إلى روما
لأول مرة وجدتها أشبه بالمدينة المهجورة .. أسلمت أمرى إلى
الله وعلمت أننى لن أستطيع القيام بشئ فى سبيل الاستقرار
من قبيل إعداد المسكن وما شابه ذلك خلال هذه الفيرا
أوجوستو .. فعزمت على التعرف على المدينة ، وكنت أقيم لدى
الزميل الصديق حسن عيسى السكرتير الثانى لسفارتنا لدى
الفاتيكان والسفير فيما بعد . كما ترك لى صديقى وزميل
الدراسة السكرتير الثانى عبد الله فؤاد "رحمه الله " مفاتيح
سيارته لكى استخدمها أثناء غيابه فى أجازة بالقاهرة ..
شجعني ذلك على القيام بمغامرة للنزول إلى منطقة وسط البلد
بمفردى.. ولم يكن من الصعب التفاهم مع الإيطاليين فهو
شعب ودود وذكى ويتمتع بخفة الظل وقدر كبير من الحميمية
والحيوية بالإضافة إلى مواهب مسرحية تنعكس فى الوجوه

المعبرة وحركات الأيدى التى يستخدمونها ببراعة لتعزيز شرح ما يريدون قوله فاستعنت بالكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى من دورة المعهد التى تلقيتاها قبل السفر حتى وصلت إلى غايتى وهى فيافينتو .. الشارع الأسطورى الذى سمعت عنه كثيراً وشاهدناه فى أفلام فيتوريو ديسيكا وجينا لولو بريجيدا وتوتو وسائر الأفلام الإيطالية التى أدمناها فى الخمسينيات والستينيات وهى حقبة الدولشى فيتا كما أسماها الإيطاليون .. وبالرغم من أنه شارع صغير ولا يعد من الشوارع التاريخية فهو حديث نسبياً إذ تم إنشاؤه بعد الوحدة الإيطالية فى عام ١٨٧٠ ليصل بين فيلا بورجيزى وميدان باربارينى إلا أنه اكتسب شهرة عالمية بأرصفته ذات المقاهى الأنيقة وتردد المشاهير من نجوم السينما والفن عليه الذى أعطاه مزيداً من البريق .

جلست فى مقهى الدونية الشهير أسلى ليلتى الأولى فى روما بمشاهدة نهر الحياة المتدفق فى هذا الشارع فالأيطاليون يعشقون الحياة تحت قبة السماء وتناول الطعام فى الهواء الطلق بينما الموسيقيون يجبون الشارع من مطعم

إلى آخر وكثيراً ما يقيمون فى هذا الشارع عرضا للأزياء يسمونه نساء تحت النجوم .

كانت وجهتى الثانية هى شارع دل كورسو وهو على عكس فينيتو _ شارع عريق حقاً وتاريخه ضارب فى القدم إذ يعود إلى العصر الرومانى ويستمد أسمه من سباق الخيول الذى كان يقام فيه والذى كان يبدأ من ميدان فينسيا والذى سمى بهذا الاسم لوجود قصر فينسيا به وهو القصر الذى كان مقراً لسفراء جمهورية فينسيا والذى اتخذه موسولينى مقراً له وكان يلقى خطبه النارية من شرفته التى أصبحت تعرف باسم شرفة موسولينى وينتهى الشارع عند بوابة الشعب Porta Del Popolo وهى إحدى بوابات سور روما التاريخية الذى بنى فى حوالى عام ٤٠٠ قبل الميلاد .. والإيطاليون يعتزون بتاريخهم وأهالى روما يشعرون بالفخر لرومانيتهم .. فعندما يقول لك أحد الإيطاليين أنه رومانو فأنه يسارع بإضافة رومانو دى روما Romano di Roma حتى لا تظن أنه من رومانيا !! وهم يحرصون اشد الحرص على المظاهر والألقاب .. فأما المظاهر الـ Bella Figura

فهم شديدو الاهتمام بها لدرجة أن الإيطالى إذا ما خير بين شراء شئ للمنزل أو شيئاً يراه الناس .. فسيختار الثانى لا محالة .. وأما الألقاب فما أكثرها فى روما .. فالجميع دكاترة فى إيطاليا فهم يتنادون بلقب دوتورى Dottore وهو أعلى لقب تمنحه الجامعات الإيطالية .. وهناك فيلم إيطالى شهير اسمه " نحن جميعاً دكاترة " Siamo Tutti Dottori يعالج هذا الموضوع فى إطار كوميدى .. وكذلك لقب كابو أى الرئيس فهو أيضا واسع الانتشار .. ولا تظن أن إيطاليا تفتقر إلى الألقاب الحقيقية فهى مليئة بالنبلاء الحقيقيين وأصحاب الألقاب المتوارثة .. وما أكثر الكونت والكونتيسة فى إيطاليا .. إلا أنهم شأن البشر العاديين تسرى عليهم عوارض الزمن فكثير منهم يعملون لإكتساب الرزق وتجدهم على وجه الخصوص فى وظائف العلاقات العامة والبرتوكول ويعملون عملاً دون ذلك .. وأذكر عندما ذهبت إلى مدينة فيرونا فى الشمال الشرقى من إيطاليا لأتسلم _ نيابة عن السفير _ جائزة البناء المقدمة لمصر .. وجدت فى استقبالى بمحطة القطار رجلاً أنيقاً قدم نفسه على أنه الكونت فلان من

مراسم المؤتمر .. ومدينة فيرونا هذه هى التى عاش فيها روميو وجوليت وتحابا وماتا .. وكتب فيها شكسبير قصته الشهيرة ولازالت "بلكونة" جوليت مزاراً للسائحين .

ونظراً لأن إيطاليا كانت حتى عهد قريب ممالك وجمهوريات مستقلة حيث لم تتوحد تحت هذا الاسم إلا فى عام ١٨٧٠ لذا تجد فيها تنوعاً ثرياً فى كل شئ .. على عكس الولايات المتحدة الامريكية التى تسير فيها أياماً وليالى دونما اختلاف يذكر .. بل أنماطاً متكررة من الرموز الأمريكية الشهيرة .. الموتيل والهمبرجرستاند والمين استريت ... وكلمة إيطاليا كلمة حديثة فلم تعرف بهذا الاسم إلا بعد التوحيد ، أما الأقليم الذى يفخر بأنه أعطى إيطاليا اسمها فهو أقليم أوميريا Umbria وعاصمته مدينة بروجيا فى وسط إيطاليا حيث تقول الكتب التاريخية أن ثورة عارمة اندلعت فى هذا الأقليم ضد روما فى عام ٩٠ قبل الميلاد وسيطر أبناء البلاد على الأقليم واعلنوا استقلاله واعطوه هذا الاسم (إيطاليا) ، وقد سحقت روما بالطبع هذا التمرد وقضت على تلك

الجمهورية الصغيرة إلا أن الاسم عاش وامتد ليشمل كامل ما يعرف الآن باسم إيطاليا.

فى صباح اليوم التالى لوصولى وجدت نفسى أقود السيارة فى شارع فياسالاريا متجهاً إلى السفارة المصرية لأول مرة ومهتدياً بالشرح التفصيلى لخريطة الطريق الذى أمدنى به جسن عيسى .. دلفت إلى القصر وقدمت نفسى للسفير ووقعت إقرار استلام العمل .. وخرجت لالتقى بالزملاء من أعضاء السفارة الجدد والقدامى .. كنا خمسة من الدبلوماسيين نقلنا إلى روما فى نفس الحركة .. وقد أصبحوا جميعاً فيما بعد سفراء وانتقل منهم ثلاثة إلى رحمه الله وهم المرحوم توفيق أباظة والمرحوم محمد عبد الحليم محمود والمرحوم عبد الله فؤاد حافظ ثم السفير عادل السماوى أطال الله بقاؤه وكاتب هذه السطور .. تحلقنا حول الزميل عمر جاد المستشار القديم بالسفارة (والسفير فيما بعد) .. والذى مضى عليه عامين فى روما قبل وصولنا وأخذ يحكى لنا عن الأحوال السياسية والاقتصادية فى إيطاليا وعن نظام العمل بالسفارة ثم أخذنا فى جولة بالقصر التاريخى الذى اتخذته

السفارة مقراً لها وسكناً للسفير وهو قصر آل سافويا الأسرة المالكة السابقة في إيطاليا .. أما كيف آل هذا القصر إلى مصر فلذلك قصة ..

فبعد هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية والغاء الملكية وإعلان الجمهورية بها .. تمت مصادرة أموال الأسرة المالكة وترك لهم القصر بعد اقتطاع جزء كبير من حديقته الشاسعة وجعلها حديقة عامة أطلق عليها اسم فيلاأدا .. أما القصر بما تبقى له من حديقة فيطلق عليه اسم فيلا سافويا .. وتم نفي الأسرة المالكة إلى الخارج .. فقام الملك فاروق باستضافة الملك إمانويل بأحد القصور الملكية في مصر .. وعرفاناً بهذا الصنيع أهدى فيتوريو إمانويل قصره في روما المعروف باسم فيلاسافويا إلى الملك فاروق الذى منحه بدوره للحكومة المصرية لجعله مقراً لسفارتنا في روما .. إلا أن كل ذلك تم بلا عقود ولا توثيق بل معاملات ملكية على نمط كلام الملوك الذى لا يرد .. ولكنه في الواقع رد .. فما أن قامت الثورة في مصر حتى رفعت أسرة سافويا قضية على الحكومة المصرية تطالبها بإخلاء السفارة وتم التصالح فيما بعد بتحرير عقد

إيجار بقيمة رمزية تحفظ لهم حق الملكية.

أشرت فيما سبق إلى أن القصر وما تبقى له من حديقة أصبح يعرف باسم فيلاسافويا .. وفى الواقع فأن عبارة ما تبقى من حديقة هى عبارة خادعة لأن كلمة ما تبقى تعطى انطباعاً بالصغر .. والحقيقة أنها حديقة شاسعة لا يمكن تخيل مداها حتى أن الإنسان قد يضل الطريق فيها تماماً كما يضل الطريق فى الغابات .. حديقة تمرح فيها الخيول البرية البونى Pony.. وبها قلعة وسرداب طويل كان يصل بين القصر والخارج .. وفى مقدمة القصر برج حراسه عال على نمط إبراج القلاع فى العصور الأوروبية الوسطى ..

تقع السفارة المصرية فى فياسلاريا .. وطريق سالاريا هذا وهو اسم مشتق من الملح حيث كان هو الطريق الذى ينقل من خلاله الملح من البحر حتى روما وتكمن أهمية الملح فى الضرائب التى كانت تفرض على دخوله إلى روما .. هذا الطريق هو أحد الطرق الخمسة الطويلة التى لازالت قائمة ومستخدمة منذ العصر الرومانى وكلها تؤدى إلى روما كما يقول المثل الشهير .. كل الطرق تؤدى إلى روما ..

أما قصة اعتقال موسوليني في هذا القصر فهي جديرة بأن تروى أيضا .. فبعد أن حقق الفيلد مارشال مونتجمري نصره العظيم في العلمين قام بعملية انزال بحرى في جزيرة صقلية ومنها عبر مضيق مسينا إلى جنوب إيطاليا ، بينما نزل الجنرال الأمريكي مارك كلارك في انزيو التي تقع في الطريق بين روما ونابولي وعندما أخذت قوات الحلفاء تعزز تواجدها في جنوب إيطاليا أيقن الملك فيتوريو عما نوائيل بحتمية انتصار الحلفاء فاتفق مع أحد جنرالات الجيش سراً وهو الجنرال أو الماريشال باديللو على خطة للتخلص من موسوليني .. وفي اليوم المحدد لتنفيذ المؤامرة قام الملك باستدعاء موسوليني إلى القصر للتشاور .. بينما كان باديللو ينتظر بقوة صغيرة على الباب الخارجي للقصر .. وما أن مر موسوليني من البوابة الخارجية حتى أغلقت البوابة ومنع حراسه من الدخول ودخل موسوليني على الملك فوجده واقفا خلف مكتبه وبادر دون مقدمات بإبلاغه أنه نظراً لخطورة الموقف فقد قرر عزله من رئاسة الحكومة وكلف المارشال باديللو بتشكيل حكومة جديدة تسعى للسلام مع الحلفاء .

وعند خـروج مـوسـولينى من المكتب تم اعـتـقـاله بـواسطة جنود باديللو ووضع فى سيارة بلا نوافذ انطلقت إلى شـمـال إيطاليـا حـيث أودع سـجـيناً فى قلعـة من القـلاع الإيطاليـة القديمة ..

وقد نجح هتلر فى اختطاف موسولينى من القلعة فى عملية جريئة حيث هبطت مجموعة من الكومـاندوز الألمان على القلعة وتم فك أسـر مـوسـولينى وأقلعت به طائرة ألمانيـة صـغيرة لها القدرة على الهبوط والاقلاع من ممرات قصيرة أشبه ما تكون بالهليـوكـوبتـر واتجـهت به إلى برلين حـيث قـام الألمان بعـدها باقتـحـام شـمـال إيطـاليا وإعـادة مـوسـولينى إليـهـا الذى أعلن إلغـاء الملكيـة وإعـلان الجـمـهـورية فى إيطـاليـا ولكنه لم يكن يسيطر إلا على ذلك الجزء الشمالى من إيطاليا ..

***

مـرت سنوات رومـا الثـلاث سلسـة بلا مـفاجـأت إلى أن حل مـوعـد الرحـيل فى نوفـمـبر ١٩٧٧ وأبلغت بأننى عينت بمكتب السيد مـحمد رياض وزير الدولة للشئون الخارجية .. ثم فجأة توالت المفاجـأت .. إعـلان زيارة الرئيس السـادات للقـدس ثم

استقالة وزير الخارجية إسماعيل فهمي وتعيين محمد رياض وزيراً للخارجية وتعيين د. بطرس غالى وزيراً للدولة للشئون الخارجية ثم بعد ٢٤ ساعة استقالة محمد رياض وتولى د.بطرس غالى منصب وزير الخارجية بالنيابة ومرافقته للرئيس فى زيارة القدس ..

***

عدت إلى القاهرة فى أواخر نوفمبر ١٩٧٧ وتسلمت عملى مستشاراً بمكتب وزير الدولة للشئون الخارجية ووجدت نفسى على غير ترتيب منى أعمل مع أستاذى السابق فى قسم العلوم السياسية بكلية التجارة بجامعة القاهرة .. الدكتور بطرس بطرس غالى .

الفصل الثالث :

اليوم الأخير فى مفاوضات السلام الإسرائيلية

فى أواخر شهر ديسمبر عام ١٩٧٨ كنا نحن أعضاء الوفد المصرى فى مفاوضات بلير هاوس الخاصة بابرام معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل، نمضى الوقت فى فندق ماديسون الفاخر فى واشينجتون بلا عمل حيث مرت عدة أيام منذ توقفت المفاوضات تماماً-على مستوى الوفد على الأقل- أمام حجر عثرة غير قابل للتحريك _ حيث طالبت إسرائيل بأن تلتزم مصر ببنود المعاهدة فى ظل كل الظروف ولا تدخل فى أى تعهدات تتعارض معها وتنبذ أى التزامات تخالفها وكان معنى ذلك ببساطة أن تعلن مصر انسحابها من اتفاقية الدفاع العربى المشترك وأى التزامات دفاعية عربية أخرى على المستوى الثنائى.

سارعت الولايات المتحدة بتقديم نص لمادة _ عرفت فيما بعد باسم المادة السادسة _ بعنوان "أولوية الالتزامات" يقضى بأن الإلتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة سوف تسود على التعهدات والتحفظات الدولية السابقة التى تتعارض معها وكذلك على أى نصوص فى القانون الداخلى تتنافى معها".

معنى ذلك ببساطة إلغاء لالتزامات مصر بموجب اتفاقية الدفاع العربى المشترك التى تتطلب أن تهب مصر لنجدة أى

دولة عربية طرف إذا ما تعرضت لعدوان خارجى وكان تسمك إسرائيل شديداً بهذه المادة التى هى من صياغتها .. حيث كان الوفد الإسرائيلى يرى أنه بدونها تصبح كل بنود المعاهدة غير ذات موضوع وأن مصر برفضها قبول هذه المادة إنما تعلن أنها ستحارب إسرائيل مرة أخرى فكيف يمكن أن تكون هذه الاتفاقية معاهدة سلام .

وكان رد مصر منطقيا فاتفاق الدفاع العربى المشترك هو اتفاق دفاعى وليس موجها ضد أحد وعليه فإذا لم يحدث عدوان على دولة عربية فلا نحتاج إلى تفعيل اتفاقية الدفاع المشترك ثم ماذا عن حق الدفاع الشرعى عن النفس الذى تكفله المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة ، هل تريد إسرائيل أن تنبذ مصر أيضاً حقها فى الدفاع عن النفس.

وبعد جدال طويل توقفت عجلة التفاوض عن الدوران، وانتقلت الإتصالات إلى العواصم.. ويقى الوفد المصرى فى انتظار التعليمات ولم يكن بالإمكان إيجاد حل لهذه العقبة الكؤود فى أيام قليلة أو كثيرة، فالاختيار صعب بل يكاد يكون مستحيلاً لأنه ببساطة يطالب مصر بأن تختار بين العرب وإسرائيل!!

وقبل توقف المفاوضات تقدم الوفد المصرى بتعديلات على النص الأمريكي كان أهمها حذف عنوان المادة الذى يشير إلى أولوية الإلتزامات وإضافة عبارة " مع عدم الإخلال بالمادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة " وهى المادة الخاصة بحق الدفاع الشرعى الفردى والجماعى عن النفس.. وقبل الوفد الإسرائيلى التعديلات المصرية على أن تكون إضافة على النص وليست بديلاً له وبالطبع فقد رفضت مصر ذلك الاقتراح وأعلنت إسرائيل أن توقيعها على المعاهدة يتوقف على هذه المادة وفى هذا الأثناء توالت التعديلات المقترحة من الطرفين على المواد الأخرى للمعاهدة.. مما حدى بالأمريكان إلى تقديم نص جديد للمعاهدة يقتصر على التعديلات الأخيرة الخاصة بالوفاء بالإلتزامات والتعديلات المصرية بشأنه وذكر الوفد الأمريكي أنه يعتبر هذا نصاً مغلقاً لا يجوز تقديم تعديلات عليه وإلا فإن التفاوض سيستمر إلى الأبد.

وكان معنى ذلك نهاية عملية التفاوض على الأقل فى واشنجتون ولم يتم حل هذه المشكلة إلا من خلال الجولة المكوكية التى قام بها الرئيس كارتر فى المنطقة فى نهاية

مارس ١٩٧٩ مما سيأتى الإشارة إليه فى نهاية هذا الفصل.

وجاءتنا الأنباء من القاهرة بأن الأمر سيطول ولا يوجد بصيص أمل فى التوصل إلى حل، وعلى ذلك فالمطلوب من الوفد إعداد مشروع المعاهدة فى شكله الحالى الذى تم التوصل إليه مع ترك المواد الخلافية بين أقواس وإعداد الترجمات العربية والعبرية لها وإعداد تقارير حول المهمة التفاوضية منذ بدئها.

جلسنا مع الطاقم الإسرائيلى المكلف بالترجمة العربية .. وبدأ الوفد الإسرائيلى الجلسة بإعتراضه على عنوان المعاهدة متسائلاً هل هى "معاهدة صلح أم سلام" مشيراً إلى أنه حسب علمه فإن هناك فرق فى اللغة العربية بين Peace treaty التى تترجم معاهدة صلح و Peace Agree-ment التى تترجم معاهدة سلام .. حاولت جاهداً أن أخفى مشاعر الدهشة التى ساورتنى .. نظراً لأنه قد حدث بالفعل نقاش حول هذا الموضوع فى اجتماع مغلق بوزارة الخارجية المصرية قبل ذلك بأكثر من ست سنوات فبعد أن أجابت مصر على المذكرة الشهيرة التى وجهها جونار يارنج مبعوث الأمم

المتحدة إلى الطرفين (مصر وإسرائيل) فى ٨ فبراير ١٩٧١والتى وجه فيها أسئلة محددة للطرفين وكان يقصد من ذلك وضع حد للمراوغات بعد أن جاوزت مهمته الأربع سنوات دون التوصل على نتائج محددة وقد كان من بين الأسئلة الموجهة إلى مصر.. سؤال عما إذا كانت مصر تقبل توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل؟ وكان الرد المصرى بالإيجاب أى أن مصر تقبل توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل Peace Agreement وكان ذلك فى ١٥ فبراير ١٩٧١ .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ..رأى السيد محمود رياض وزير الخارجية رحمة الله _ أن يجتمع بجميع أعضاء الوزارة من الدبلوماسيين فى مبادرة غير مسبوقة حيث كانت اجتماعات الوزير عادة تقتصر على الوكلاء والمديرين وعقد الاجتماع فى مبنى الوزارة بالتحرير، وحينما حلت فترة الأسئلة، قمت فوجهت السؤال التالى إلى السيد محمود رياض (كنت وقتها بدرجة سكرتير ثانى أى لا أزال فى عداد صغار الدبلوماسيين):

قلت أننى أفهم أننا كنا نرفض التفاوض المباشر مع إسرائيل لما يضفيه هذا التفاوض من اعتراف ضمنى بإسرائيل ولكن الآن بعد أن قبلنا القرار رقم ٢٤٢ الذى يعترف بحق كل دولة فى الشرق الأوسط فى أن تعيش داخل حدود آمنة ومعترف بها وبعد أن تضمن ردنا على جونار يارنج استعدادنا لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل.. فلماذا نستمر فى رفض التفاوض المباشر؟ لم يعجب السؤال المرحوم محمود رياض.. وقال بلهجة عسكرية جافة: أتفضل أقعد!! ثم شرع يشرح وجهة نظره أن "الناس مش فاهمة .. هناك فرق بين اتفاق سلام peace agreement ومعاهدة سلام Peace Treaty فالأخيرة تعنى الصلح وإنهاء النزاع .. أما الأولى فهى اتفاق لإنهاء حالة الحرب.

بعد ذلك بأيام قلائل كانت الدكتورة عائشة راتب تلقى محاضرة بجمعية القانون الدولى تعرضت فيها إلى هذا الجانب وذكرت أنها سمعت أن السيد محمود رياض له وجهة نظر تفرق بين معاهدة السلام واتفاقية السلام.. بينما فى الواقع لا توجد أى فروق قانونية بين

التعبيرين .. فالمعاهدة والاتفاقية والاتفاق كلها مسميات لشئ واحد..

ذكرنا للوفد الإسرائيلي بأنه إذا كان في الماضي قد أطلق تعبير الصلح على المعاهدة التي أنهت بعض الحروب فقد استقر التعبير الآن على "معاهدة سلام" وهذا هو التعبير المعتمد في ترجمات الأمم المتحدة.

تتضمن المعاهدات عادة فصلاً ختامياً يحتوى على مواد إجرائية كمدة المعاهدة واللغات التي صيغت بها والتاريخ والمكان وما إلى ذلك .. وقد يظن البعض أنها مرت بسلام باعتبارها مواد نمطية تظهر في جميع المعاهدات والعكس صحيح فقد كانت أولى العقبات التي أثارتها إسرائيل هي مدة المعاهدة حيث كان النص الأمريكي الأول لمشروع المعاهدة يتضمن مادة تشير إلى أن المعاهدة " ستظل نافذة لأجل غير مسمي" واعترضت مصر بشدة على ذلك وتقدمت بنص بديل يقضي بالدخول في مفاوضات بعد خمس سنوات بغرض إعادة النظر في نصوص المعاهدة.

وهاج الوفد الإسرائيلي وماج.. كيف يكون هناك حد زمني

للسلام؟ إن مصر بهذا إنما تقترح إبرام اتفاقية هدنة وليس معاهدة سلام.

وتمسك الوفد المصرى بموقفه .. إذ كيف تكون هناك معاهدات أبدية؟ وأيد الوفد الأمريكى الموقف الإسرائيلى فتقدمت مصر باقتراح توفيقى على أساس أن المعاهدة تتضمن بنوداً لا يجب أن يكون لها حد زمنى كالسلام.. وبنوداً تتعلق بترتيبات أمنية يحسن مراجعتها بعد فترة زمنية.. وقد وافق على هذا التعديل المصرى وأضيف إلى المادة الرابعة نصاً يقضي بإعادة النظر فى ترتيبات الأمن بناء على طلب أحد الطرفين.

لقد وضح جليا خلال التفاوض مع الإسرائيليين أن الشك هو المحرك الأول للعقلية اليهودية.. أنهم يشكون فى كل شئ حتى أنفسهم " يحسبون كل صيحة عليهم"، وقد حدث فى إحدى الجلسات أن اقترح المستشار القانونى للوفد الإسرائيلى السفير مائير روزين .. نصاً قبله نظيره المصرى الدكتور أسامة الباز، فما كان من مائير روزين إلا أن صرخ "انتظر لحظة" وأعاد النظر فى اقتراحه وسط ضجة القاعة

بالضحك ليرى ما الذى جعل أسامة الباز يقبله هكذا وبهذه السرعة.

عاد الوفد المصرى إلى القاهرة ومعه مشروع المعاهدة التى تم التوصل إليها بما فيها المواد الخلافية موضوعة بين الأقواس، وفى محاولة من إسرائيل للسيطرة على زمام المبادرة الإعلامية أعلنت أنها تقبل مشروع المعاهدة كما أعد في واشنجتون بدون أية شروط سوى قبول مصر له.. ولم يكن بإمكان مصر قبول صياغة المادة السادسة التي يتضمنها هذا المشروع بأية حال من الأحوال .. وبذلك وصلت الأمور إلى طريق مسدود إلى أن قام الرئيس الأمريكى جيمى كارتر بمهمته الماكوكية بين الطرفين والتى تم التوصل خلالها إلى إعداد تفسير للمادة السادسة يرفق بالمعاهدة (وذلك تمسكا من الجانب الأمريكى بعدم المساس بنص المعاهدة تجنباً لفتح باب التعديلات).. وينص هذا التفسير على اتفاق الطرفين على أنه لا يوجد فى هذه المعاهدة ما يشير إلى أنها تسود على أى اتفاقات أو معاهدات أخرى، أو أن أى اتفاقات أو معاهدات أخرى لها السيادة عليها" وادرج هذا التفسير

ضمن ملاحق المعاهدة(٩)، وهكذا تمت إزالة العقبة الأخيرة أمام التوقيع على المعاهدة.

وقد يكون من المفيد في هذا الصدد الرجوع إلى محاضر الاجتماعات التي تناولت هذا الموضوع والخلافات الشديدة التي شابته وتباين المواقف تجاهه، فعندما استحكم الخلاف بين مصر وإسرائيل بشأن المادة السادسة إزاء إصرار مصر على رفض التوقيع على معاهدة تؤدي إلى أن تكون التزامات مصر العربية في موقع أدنى من التزاماتها بموجب معاهدة السلام، وإزاء إصرار إسرائيل بأن هذه المادة هي قلب المعاهدة وأنه بدونها تستطيع مصر أن تتحلل من التزاماتها في أي وقت بل أنه يمكنها اعتبار استمرار احتلال الأراضي العربية الأخرى عدواناً من جانب إسرائيل على الدول العربية يبرر لها استخدام القوة ضد إسرائيل .. إزاء هذا الوضع تقدمت الولايات المتحدة برأي قانوني بشأن هذه المادة مفاده " أنه لمصر الحق في مساعدة أي دولة عربية عسكرياً إذا ما تعرضت لهجوم إسرائيلي مسلح (يلاحظ أنها لم تستخدم كلمة عدوان نظراً لأن تعريف العدوان الذي أقرته الجمعية

العامة للأمم المتحدة يتضمن اعتبار احتلال الأراضى بالقوة أو ضمها نوع من أنواع العدوان).

Any military occupation, however temporary resulting from invasion or attack, or any annexation by the use of force of .the teritory of another state

بينما لا يكون لمصر هذا الحق إذا ما حدث الهجوم من جانب دولة عربية على إسرائيل.

وقد كان رد فعل إسرائيل عنيفاً على هذه المقترحات الأمريكية إذا اعتبرته يلغى المعاهدة من أساسها ويسلبها روحها واعتبرته تقنيناً للحرب بإضفاء صفة المشروعية عليها فى معاهدة سلام.

وقد تعقد الموقف أكثر من ذلك بقيام إسرائيل بتوجيه أسئلة رسمية مكتوبة إلى الولايات المتحدة كان من بينها سؤالاً عما إذا كان استمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية يعد هجوماً مسلحاً بمفهوم الرأى القانونى الأمريكى يبيح لمصر الحق فى التدخل العسكرى طبقاً لأتفاق الدفاع

المشترك، وكان الرد الأمريكي أنه بعد صدور القرار رقم ٢٤٢ فإن الاحتلال الإسرائيلي لم يعد عدواناً !! وكان السؤال الثاني في قائمة الأسئلة الإسرائيلية الموجهة لأمريكا يتعلق بحق الدفاع الشرعي عن النفس وهل تدخل في نطاقه العمليات العسكرية التي تقوم بها إسرائيل رداً على عمليات فدائية إلا أن الولايات المتحدة أجابت بأنها لا تستطيع أن تعطي رداً على هذا السؤال يكون شاملاً لكافة أنواع الحالات التي يحق أو لا يحق لإسرائيل التدخل العسكري بموجبها وكانت أمريكا تحاول باستماتة اقناع مصر بقبول الرأي القانوني الأمريكي وذكرت أن هذا الرأي تضمن لأول مرة موافقة صريحة من أمريكا لعمل عسكري تقوم به مصر ضد إسرائيل إلا أنه مصر لم يكن بوسعها قبول الرأي القانوني بعد الردود التي وجهتها أمريكا لإسرائيل رداً على أسئلتها والتي يمكن تفسيرها بأن أمريكا تعتبر استمرار احتلال الأراضي أمراً مشروعاً ، وإنها أي مصر ستضطر في حالة إصرار أمريكا على موقفها إلى تقديم أسئلة لها على غرار ما فعلته إسرائيل وإن ذلك سيدخلنا في حلقة مفرغة ،

وإن الموقف المصرى المبدئى هو تعديل المادة السادسة لإزالة أى لبس فى صياغتها .

وقد دامت أزمة المادة السادسة عدة شهور إلى أن تم التوصل إلى الصيغة الواردة فى المحضر المتفق عليه وفى اعتقادى أن الرأى القانونى الأمريكى الذى قدم رسمياً للأطراف سيفيد فى تفسير المادة السادسة بالرغم من رفض مصر له ورفض إسرائيل له فقد إنتهى بوضوح إلى حق مصر فى مساعدة أى دولة عربية عسكرياً إذا ما تعرضت لهجوم إسرائيلى مسلح تنفيذاً لاتفاقية الدفاع العربى المشترك.

الفصل الرابع :

بنى إسرائيل

١ - الأسماء لدنيا ولديهم
٢ - القروى اليهودى والحاخام
٣ - قلوبهم شتى
٤ - الحكم الذاتى. فندق فلسطين «أرض إسرائيل»
٥ - بناء الثقة أم هدم الثقة
٦ - لو أن لنا سى. إن.إن عربية
٧ - العشاء الأخير فى مزرعة الحيوان

(١)
الأسماء لدينا ولديهم

نحن نطلق أسماء "الماركات" على السلع والأدوات والمنتجات فكل خزانة ملفات هى "شانون" حتى لو لم يكن شانون هو الصانع لها.. وكل مكنسة كهربائية هى "هوفر" وفى قريتى يطلقون على كل سيارة نصف نقل أسم "تايوتا" فيقال أن فلانا اشترى تايوتا شيفرولية .. بل أننى سمعت شغالة تنادى على بائع الصحف .. يا بتاع الأهرام معاك أخبار اليوم!!

تداعت فى ذهنى هذه الخواطر وأنا أقطع المسافة بين العجمى وسيدى عبد الرحمن بالساحل الشمالى، وأقرأ أسماء القرى السياحية وهى تتوالى الواحدة تلو الأخرى.. مارابيلا.. مارينا .. جرين بيتش.. سانتا مونيكا.. فينيسيا.فارنا.. إلخ .. وإذا بهذا الكرنفال من الأسماء الأسبانية والإيطالية والإنجليزية والبلغارية يستحضر فى ذهنى لقطات من ذكريات قديمة بعض الشىء :

الأولى : فى أواخر نوفمبر عام ١٩٧٨ بفندق ماديسون بواشينجتون حيث كانت تدور المفاوضات بين الوفود الثلاثة المصرية والإسرائيلية والأمريكية حول معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.. وبعد قرابة الخمسين يوما من المفاوضات الشاقة توصلت الوفود كما أسلفنا إلى مشروع إتفاق سلام بين مصر وإسرائيل، مع ترك بعض المواد الخلافية بين الأقواس وأخذ الوفدان المصرى والإسرائيلى فى المراجعة الدقيقة للنص النهائى والملاحق والخرائط وإذا بالوفد الإسرائيلى يطالب بإصرار بوضع الأسماء العبرية التى أطلقتها إسرائيل على بعض المدن المصرية فى سيناء مثل أوفيرا بجانب الاسم المصرى شرم الشيخ، وإزاء رفض مصر وإصرار إسرائيل وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود ولم تخرج منه إلا عندما تبين لإسرائيل استحالة قبول مصر لوضع الأسماء العبرية على الخريطة الرسمية لسيناء المرفقة بالإتفاقية .. وهكذا بدأ المفاوضون _ الوفود الثلاثة- يبحثون عن صيغة لإنقاذ ماء الوجه .. وسرعان ما تفتق ذهن موشى ديان عن إقتراح يقضى بحذف الإشارة إلى جميع المدن والتجمعات السكانية التى يقل عدد سكانها عن مائة ألف

وهكذا ظهرت الخريطة المرفقة بالاتفاقية وليس عليها سوى اسم العريش وقد كان حلا مرضيا لمصر لأنه تضمن حذف الأسماء العبرية من على الخريطة.

أما الوقفة الثانية: فكانت بفندق سان إستيفانو بالإسكندرية فى صيف عام ١٩٨٠، وكانت أيضا المفاوضات تدور مع الوفد الإسرائيلى حول تطبيق الإطار الثانى لإتفاقيتى كامب ديفيد.. وهو الخاص بالحكم الذاتى الفلسطينى .. وفى إحدى فترات الاستراحة إذا بأحد أعضاء الوفد الإسرائيلى يقول ساخراً :

" لم أكن أتصور قدر النفوذ الإيطالى فى مصر إلى هذا الحد.. الفندق الذى نقيم فيه سان إستيفانو .. والعشاء الرسمى بمطعم سان جيوفانى .. والعشاء الثانى فى سانت لوتشيا لقد كدت أظن أننى فى مدينة إيطالية.

والمؤلم فى الأمر أنه إذا كان للإسكندرية بعض العذر فى إقتباس هذه الأسماء نظرا للجالية الإيطالية العريقة بها، والتى قد تكون أنشأت هذه الفنادق والمطاعم.. إلا أن ذلك غير وارد بالنسبة للساحل الشمالى الذى بنيناه بسواعد مصرية وتخطيط مصرى وتمويل مصرى ثم نسبناه إلى غيرنا.. بحثا

عن "الشياكة" والعصرية وأنا أتوقع لهذه المنطقة أن تكون منطقة السياحة الترفيهية الأولى فى مصر.. ولا شك أن السائحين سيظنون ولديهم كل العذر أن الأوروبيين هم الذين بنوا لنا هذا الساحل الجميل.

إن هذه الأسماء المستعارة لا تثير لدى الأجانب إلا السخرية، فالذى يلجأ إلى مثل ذلك هى المجتمعات ذات الثقافة الضحلة، أوتلك التى ليس لها تاريخ سوى التطور الأنثروبولوجى.. أو أن تكون ثقافة إستيطانية مستجلبة مثل الولايات المتحدة التى كررت أسماء المدن الأوروبية وأضافت إلى بعضها كلمة NEW أى الجديدة.

إن شركات الفنادق العالمية عندما تنشئ فندقا فى بلد ما تبحث عن أسماء لقاعات هذا الفندق من تاريخ البلد الذى أقيم فيه ومن بيئته حتى تعطيه طابعا ومذاقا أصيلا.

ولقد طرحت هذه الخواطر على المهندس العظيم حسب الله الكفراوى صاحب الفضل الأول فى تعمير الساحل الشمالى.. فقال أن هناك فرق بين تسميات القرى التى أنشأتها وزارة التعمير (مارينا ومارابيلا..إلخ) وتلك التى أنشأها القطاع الخاص.. فالأولى مستمدة من التاريخ الرومانى للساحل

الشمالى.. أما الثانية فهى مجرد أسماء "خواجاتية" ليس بينها رابط ولا ضابط.. ولكن ما الذى يدعونا لإحياء تاريخ الاحتلال الرومانى لمصر أو البريطانى أو الفرنسى أو الصهيوني لسيناء .. ولماذا لا نستفيد من أسم "العلمين" ذى التاريخ والدوى العالمى ونطلق هذه التسمية على الساحل بأكمله.. أليس ذلك أفضل من مارنا البلغارية.

(٢)
عودة القدس
وقصة القروى اليهودى والحاخام

كنا مجموعة من الدبلوماسيين من جنسيات مختلفة نتحدث عن الصراع العربى الإسرائيلى وصعوبة التفاوض مع إسرائيل وإذا بالدبلوماسى الرومانى يقول هل سمعتم عن قصة القروى اليهودى والحاخام .. إن لها صلة وثيقة بموضوع الحديث ، والقصة تروى أن فلاحاً يهودياً عجوزاً يقطن إحدى القرى اليهودية برومانيا ذهب إلى حاخام القرية يشكو إليه من مسكنه الذى ضاق به وبأهله من كثرة الأولاد والدواب التى تعيش معهم فى فناء البيت الصغير..

فنصحه الحاخام بأن يشترى كلبا .. فدهش الرجل وقال أشكو إليك من ازدحام بيتى من كثرة الأولاد والدواب وتطالبنى بإضافة كلب.. فقال لقد طلبت النصيحة وقدمتها إليك فأفعل ما بدالك ونفذ الرجل النصيحة .. وازداد الحال سوءاً فذهب يشكو مرة أخرى فقيل له إشترى حصاناً ثم إشترى بقرة وهكذا تكررت الشكوى وتكررت النصيحة حتى

امتلأ البيت بالحيوانات وأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق.. ثم طلب منه الحاخام أن يبيع أحد الحيوانات وليكن الحصان ففعل.. وذهب إليه يسأله: كيف الحال الآن.. فقال الفلاح: لاشك انه أفضل الآن من الأمس قليلاً فقال له: تخلص إذن من الكلب ففعل فتحسن الوضع أكثر.. وظل يطالبه بالتخلص من الحيوانات الجديدة التى اشتراها حتى عاد الوضع كما كان عليه فى البداية.. ثم سأله: كيف الحال الآن فقال نعم الحال.. الآن أستطيع أن أنام فى هدوء وأصبح البيت مكاناً صالحاً للسكنى !!

تذكرت هذه القصة التى حكاها لى أحد الدبلوماسيين الأجانب وأنا أقرأ المقال الذى نشرته جريدة الجروزاليم بوست يوم ١٨ يناير ١٩٩٧ بعنوان : Some Surprising Tea Leaves الذى استعرض استطلاعاً للرأى فى إسرائيل قامت به إحدى المؤسسات المتخصصة واستغرق عاماً كاملاً وكان موضوعه: كيف يرى الإسرائيليون مستقبل عملية السلام؟ والذى لفت نظرى أن التحليل المصاحب للنتائج هلل لما أعتبره كشفاً عن مفاجأة سارة وهى أن الرأى العام الإسرائيلى مستعد لإعطاء تنازلات كبيرة حتى فى أقدس

الموضـوعـات وهو القـدس.. وكيف كـان ذلك؟ أن الحل كمـا أسمـاه صـاحب المقـال هو في اعـادة تعـريف القدس.. ويقـول الأستاذ جيروم سيجال الأستاذ بجامعة ميريلاند الأمريكية والذى شارك فى الاستطلاع إن ٥٩٪ من سكان إسرائيل من اليهود مستعدون لإعادة تعريف حدود مدينة القدس لجعلها أكثر يهودية، كما أن ٤٥٪ على استعداد لإعادة المستوطنات العربية" أى القرى العربية الذى كانت فى الماضى جزءاً من الضفة الغربية وأصبحت الآن داخل حدود مدينة القدس بل أن ٣٤٪ على استعداد لإعادة الأحياء العربية من القدس الشرقية عدا تلك الأحياء التى داخل الأسوار " يعنى فى البداية ضم القرى العربية إلى القدس ثم إعادة القرى العربية إلى العرب، وعليها لا بل LABLE مكتوب عليه القدس.. ويومئذ يفرح المؤمنون .. وهذا أسلوب إسرائيل من البداية . تماما كنصيحة الحاخام للقروى اليهودى "اشترى كلباً".

(٣)
قلوبهم شتى

بعد توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل وتبادل أوراق التصديق فى أم خشيب بوسط سيناء ، تم الاتفاق على عقد لقاء بين الجانبين على مستوى وزراء الخارجية لبحث بعض التفاصيل العملية المتعلقة بتنفيذ المعاهدة ، (وأيضا للتفاوض حول اتفاقية الاطار الثانية التى وقعت فى كامب دافيد بشأن إقامة حكم ذاتى للشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة).

صحبت الدكتور بطرس غالي وزير الخارجية بالنيابة حيث كنت وقتها مستشاراً فى مكتبه إلى اجتماع فى العريش مع الوفد الإسرائيلى برئاسة موشى ديان وزير الخارجية.. وما أن بدأ الاجتماع حتى سمعناً جلبة فى خارج الغرفة ثم فتح الباب بقوة ودلف منه عيزر وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلي وبعض معاونيه.. وتغير الجو الكئيب الرتيب الذى كان سائداً فى الغرفة حيث أخذ وايزمان ذو الكاريزما الطاغية فى التحدث بصوت عال قائلاً لقد كنت فى المنطقة وعلمت

بوجودكم فجئت للتحية .. أوه أنه مسرح عمليات فى الخارج (مشيراً إلى المصادمات بين قوات الجيش والمستوطنين فى ياميت التي أنشأتها إسرائيل بجوار العريش وكنا بالفعل قد شاهدنا ونحن فى الهليوكوبتر السنة الدخان الأزرق للغازات المسيلة للدموع وهي تتصاعد من الأرض.. حيث كان قد بدأ إجلاء بعض المستوطنين بالقوة).

لاشك أن ديان قد شعر بضيق شديد من اقتحام وايزمان " لركنه الخاص" .. وإن لم يبدو عليه سوى نفس الكآبة ونصف الابتسامة الساخرة .. وأراد أن يستعيد السيطرة على الموقف .. فدعا وايزمان للجلوس شارحاً له الموضوعات التي يجرى بحثها.. إلا أن ويزمان اعتذر قائلا أنه حضر للتحية فقط..

فقال ديان بسخرية شديدة .. إننى أعرفك جيداً لابد أن الطعام الذى نتناوله لم يثير شهيتك ثم التفت إلى د. بطرس غالى قائلاً .. إنه صهرى وأنا أعرفه جيداً فهو يأتي لمنزلنا بنفس الطريقة ويقتحم المطبخ ويرفع الأغطية عن الحلل فإذا وجد الطعام شهياً جلس على المائدة وأكل وإلا فإنه ينصرف... وقد ظن اليوم أن طعامنا شهياً ومن أجل ذلك حضر لكى يتأكد بنفسه.

(٤)

الحكم الذاتى وفندق فلسطين .. أرض إسرائيل

عقد الاجتماع الأول لمفاوضات الحكم الذاتى الفلسطينى فى مدينة بير سبع فى ربيع عام ١٩٧٩ وذلك بعد الاتفاق على استبعاد عقد الاجتماعات فى العواصم نظراً لموقف مصر المعروف من قضية القدس . ولذلك كان أول ما تقرر فى اجتماع بير سبع هو الاتفاق على عقد الاجتماعات بالتناوب بين مدينتى الإسكندرية وتل أبيب .

وهنا نشأت مشكلة لم تكن فى الحسبان .. فقد اعترض الوفد الإسرائيلى على عقد الاجتماعات بفندق فلسطين بالإسكندرية .. ظن بعضنا أن الأمر لا يعدو أن يكون فكاهه من تلك التى تطلق أحياناً فى الاجتماعات الرسمية لكسر حدة الجدية.. وعندما تبين لنا أنه اقتراح جدى تم رفع الجلسة لإجراء مشاورات جانبية وقد سارع عيزر وايزمان بالقدوم إلى الوفد المصرى معلناً _ وبصوت عال _ براءته من هذا الاعتراض قائلاً لا يوجد عندى أى مشكلة فى الاجتماع

بفندق فلسطين .. بل العكس فأنه المكان المناسب للحديث عن مستقبل فلسطين .. وكان أحد أعضاء الوفد الإسرائيلى من الحزب القومي الديني يستمع فعلق بقوله "بشرط أن يكتبوا تحت عبارة فندق فلسطين" إرتز إسرائيل " أى أرض إسرائيل !!

قرر الوفد المصرى عدم إضاعة المزيد من الوقت في هذا الجدل العقيم .. وهكذا تم اختيار فندق سان استيفانو لعقد الاجتماعات ...

والجدير بالذكر أن مناحم بيجن واليمين الإسرائيلى يتعامل مع القضية باعتبارها مشكلة داخلية " فهم يؤسسون موقفهم على أنه لم تقم فى فلسطين بعد إنتهاء الانتداب البريطاني سوى حكومة إسرائيل فهى الوريث الشرعى الوحيد لفلسطين الانتداب.. ومن ثم فان احتلالهم للضفة الغربية وغزة فى عام ١٩٦٧ هو استكمال لكامل التراب الفلسطيني كما كان تحت الانتداب البريطاني ويقولون أن غزة كانت أرض محتلة تحت الإدارة المصرية . وأنه حتى مصر لاتدعى إنها جزء من أرضها وكذلك الضفة الغربية هى أراضى كانت محتلة من قبل الأردن ولم يعترف أحد فى

العالم بضم الأردن لها سوى دولة باكستان .. حتى الجامعة العربية لم تعترف بضم الأردن للضفة.. ومن هذا المنطق أو من هذه "الغلوشة" فإن مفاوضات الحكم الذاتى هى مفاوضات لتمكين الفلسطينيين من ممارسة شئونهم الداخلية وعاداتهم وتقاليدهم فى هذا الاطار المحدود "الحكم الذاتى الكامل".

والذى دفع إسرائيل للقبول بهذا هى " الورطة " التى وجدوا أنفسهم فيها بعد حرب ١٩٦٧ فقد كان الحلم الإسرائيلى هو حدوث نزوح جماعى ضخم يفرغ الضفة والقطاع من معظم السكان على غرار ما حدث عام ١٩٤٨ ، وفى هذا يقول موشى ديان فى مذكراته أنه صعد إلى جبل الزيتون فى القدس يوم ٨ يونيه ١٩٦٧ ضد نصيحة جنرالاته حيث لم يكن غبار المعارك قد إنسدل بالكامل بعد "فرأيت الفلسطينيين قد دخلوا منازلهم وأغلقوا عليهم النوافذ والأبواب ، فعرفت أننا لم نكسب هذه الأرض، لأننا أخذناها بسكانها".

هذا وقد كان الوفد المصرى فى هذه المفاوضات برئاسة الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الخارجية

وعضوية كل من د. بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية ود. أسامة الباز وكيل أول وزارة الخارجية والمستشار السياسي لرئيس الجمهورية وعدد من السفراء والخبراء بوزارة الخارجية وكنت أحد هؤلاء ، أما الوفد الإسرائيلي فقد كان برئاسة الدكتور يوسف بورج وزير الداخلية وزعيم الحزب القومي الديني ، وعضوية كل من عيزر وايزمان وزير الدفاع وأرييل شارون (وزير الزراعة في ذلك الوقت) وشاموئيل تامير وزير العدل (يلاحظ عدم وجود وزير الخارجية موشي ديان).

أما الوفد الأمريكي فقد كان في البداية برئاسة دبلوماسي محترف هو جيمس ليونارد إلا أنه لم يكن يهودياً وقد حل محله دبلوماسي محترف أيضا ومن الوزن الثقيل وهو لينوفيتز وكان يهودياً ، وكان الوفد الأمريكي يضم عدداً كبيراً من اليهود منهم دان كرتزر الذي عين سفيراً للولايات المتحدة في القاهرة في منتصف التسعينات.

(٥)
بناء الثقة أم هدم الثقة

تقرر استمرار الاجتماعات على مستوى الخبراء على أن يرفع الخبراء تقارير دورية للاجتماع الوزارى .. وتشكل فريق الخبراء المصرى برئاسة السفير عزت عبد اللطيف رحمه الله والسفير ممدوح عبد الرازق وكنت أنا والسفير بدر همام أعضاء بهذا الفريق أما الوفد الإسرائيلى فكان برئاسة السيد كوبيرسكى وكيل وزارة الداخلية الإسرائيلية وعدد من أعضاء وزارته ووزارة العدل أذكر من بينهم مائير جاباى وهو يهودى من أصل مصرى وهو ابن عم جاباى الترزى الذى كان أحد أشهر أربعة ترزيه بالقاهرة فى الأربعينات والخمسينات وهم شالجيان وصارفيان وديليا وجاباى .

وقد عقد الخبراء عدداً من الاجتماعات وأعدوا تقارير لرفعها إلى الاجتماع الوزارى الذى عقد بالإسكندرية يوم ٢٦ سبتمبر ,١٩٧٩ فى جو من التوتر حيث أصدرت إسرائيل قبيل الاجتماع قراراً يخول مواطنى إسرائيل حق شراء الأراضى فى الضفة الغربية وغزة، لذلك كان بدء الاجتماع

بكلمة قوية من د.. مصطفى خليل عبر فيها عن الدهشة لاتخاذ هذا الاجراء الذى حطم الثقة فى الوقت الذى كنا نعمل فيه على اتخاذ اجراءات لبناء هذه الثقة.. وقد حاول الوفد الإسرائيلى التقليل من أهمية هذا القرار وأشار شامير وزير العدل إلى الخلفية التاريخية لهذا الموضوع فذكر أنه قرار يصحح خطأ تاريخي ويرفع ظلما وتفرقة عنصرية ضد اليهود .. لأن حظر تملك اليهود للأراضى فى " يهوذا والسامرا" أى الضفة الغربية وفى غزة يرجع إلى قرار أصدرته سلطة الاحتلال البريطاني عام ١٩٣٩ ينص على عدم جواز تملك اليهود لأراضى فى يهودا والسامرا وغزة . (ولاحظ يا عزيزى القارئ أننا فى هذا المشهد لم نكن نحن العرب حتى متفرجين بل كنا فى سبات عميق دام قرناً من الزمان وكان البريطانيون يعلمون منذ عام ١٩٣٩ نتيجة الحرب التى ستنشب عام ١٩٤٨ وسيكون نتيجتها طرد الأغلبية الفلسطينية من المناطق التى ستخصص لليهود وإبقاء الضفة الغربية وغزة بعيدة عن الاستيطان اليهودى لأنهم أى " الاستعمار البريطاني" قرر استبقاءها لاستيعاب موجات اللاجئين.. بل ولاستقبال اللاجئين الراغبين فى العودة من الشتات عندما يحين الحين وتصبح الضفة وغزة هما أرض دولة فلسطين المستقلة ..

وأستأذن القارئ في استطراد آخر فأقول أنه فى حديث بينى وبين السفير الأمريكى الأسبق بالقاهرة دان كيرتزر تساءل بطريقة عابرة عما إذا كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بعودة اللاجئين يشير إلى حقهم فى العودة إلى ديارهم أم إلى فلسطين .. وهو تساؤل وراءه ما وراءه لأن "فلسطين " قد تفسر على انها الدولة الفلسطينية التى ستقوم.

نعود إلى كلام شاموئيل شامير وزير العدل الإسرائيلى ونقرأ من محضر الجلسة العلنية التى عقدت بفندق سان ستفانو يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٩ ما يلى :

" فى عام ١٩٣٩ بدأ الشباب اليهودى فى فلسطين تمرداً ضد الاستعمار البريطانى وكان ذلك أول صدام حقيقى مع إمبراطورية كبرى وذلك احتجاجاً على مرسومين أصدرتهما بريطانيا فى ذلك العام ويقضى أولهما بعدم السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين (استعمل هو تعبير العودة إلى وطنهم) ويقضى الثانى بعدم السماح لهم بشراء الأراضى فى جوديا والسامرا وغزة. والآن فإن بلاده (أى إسرائيل) ترى أنه بعد أن ذهب الاستعمار فإنه من السخف أن تظل مثل هذه القوانين العنصرية سارية. ثم أضاف يوسف بورج شيئاً أكثر

سخفاً واستخفافاً بالعقول .. عندما قال أن مثياق الأمم المتحدة يحرم الحصول على الأراضى عن طريق القوة ولكنه لا يحرم الحصول عليها عن طريق الشراء ، وتناول شامير الكلمة مرة أخرى وقال أنه يشعر أنه من السخف أن يستطيع اليهودى أن يتملك أراضى فى نيوجرسى ولا يستطيع ذلك فى بيت لحم ، وطلب عدم تضخيم هذا الأمر البسيط ووضعه جانباً والشروع فى بحث بنود جدول الأعمال الهامة لأن هذا ليس هو الموضوع الأساسى. عند ذلك انبرى له عدد من أعضاء الوفد المصرى موضحين أن هذا هو الموضوع بل هو لب الموضوع.. لأن الموضوع هو الأرض ونحن هنا نتحدث عن الأرض فاذا ضاعت الأرض بالاستيطان وبالشراء وبالإكراه وبمختلف الوسائل فماذا بقي لنتحدث عنه.

ويبدو أن هذا الكلام أغضب شارون جداً فتدخل بطريقة _ اعتقد أن الوفد الإسرائيلى لم يحبذها _ إذ قال أنا فلاح صلب وأقولها صراحة نحن هنا لا نتحدث عن الأرض ولا توجد فى كامب دافيد هذه الكلمة .. ولكننا نبحث فى كيفية تمكين "السكان" العرب من إدارة شئونهم فى فترة انتقالية يتقرر بعدها مستقبل الاراضى.

حاول الوفد الإسرائيلي تلطيف الجو فاشاروا إلى أن القرار الإسرائيلى لا يتحدث عن حق اليهود فى شراء الأراضى ولكنه أشار إلى الإسرائيليين سواء أكانوا يهوداً أم عرباً .

واستمرت إسرائيل بعد ذلك فى اتخاذ اجراءات استفزازية مما دعا مصر إلى تعليق مفاوضات الحكم الذاتى ، فقد أصدر البرلمان الإسرائيلى (الكنيست) قانوناً يتضمن فقرات ثلاثة :

١ - أن عاصمة إسرائيل هي القدس.

٢ - أن حدود القدس التى رسمت بعد حرب الأيام الستة ووحدتها سوف لن تمس .

٣ - وستبقي القدس هى المقر الرسمى لرئيس الدولة وللحكومة وللكنيست وللمحكمة العليا .

كما أزاح مسئول إسرائيلى الستار عن خطط إسرائيل لبناء عدد كبير من المستوطنات خلال الفترة الانتقالية.. وهكذا أوضحت إسرائيل الإطار الذى يجب أن تتم فيه مفاوضات

الحكم الذاتى .. لا عــودة للقــدس مع اســتــمــرار بناء المستوطنات.

وكـان لابد من إنهـاء مفاوضـات الحكم الذاتى .. وكـان الطرفان يستعدان لذلك ويتحينان الفرصة لكى يقع اللوم على الطرف الآخـر وأذكر أننى كتبت مذكرة فى ذلك الوقت أقول فيها أن هناك وجهة نظر إسرائيلية تقول أنه إذا كان لا مفر من إنهاء المفاوضـات فإن أفضل طريقة لإنهائها دون أن يقع اللوم على إسرائيل هو تحطيمها على صخرة القدس حيث أن هناك إجماع إسرائيلى ويهودى عالمى على موضوع القدس بينما أن أسوأ موضوع يمكن اختياره _ من وجـهـة النظر الإسرائيلية _ هو موضوع المستوطنات حيث لا يؤيد إسرائيل فـيـهـا عدو ولا صـديق.. ومن ناحـيـتنا نحن فـإن مـوضـوع المستـوطنات هو أهـم مـا يشغل بال الرأى العام العربى فـهو الخطر الحقيقى الذى يهدد بتغيير الواقع الجغرافى والتركيبة السكانيـة وبالتالى ضيـاع الضفة وغـزة كما ضاعت أراضـى سنة ١٩٤٨, كـمـا أن مـوضـوع المسـتـوطنات هو أكـثـر الموضوعات التى تجد مساندة عالمية لموقفنا بل ومساندة فى داخل الدوائر اليـهـودية العـالمية وفى إسرائيل نفسـها ، أمـا

موضوعي القدس والأمن فهى التى يستطع مناحم بيجن جعلها نقطة التقاء الرأى العام اليهودى في الداخل والخارج.. ويذكر فى هذا المجال أن الملك حسين كان قد وجه خمسة أسئلة إلى الولايات المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٨ من بينهما سؤال حول وضع المستوطنات خلال الفترة الانتقالية وبعدها.. وجاء رد الولايات المتحدة واضحاً فى وجوب امتناع إسرائيل عن إنشاء المستوطنات خلال فترة التفاوض وهو التفاوض الذى سيقرر مصير هذه المستوطنات وأكدت الولايات المتحدة موقفها من أن إنشاء المستوطنات فى الأراضى المحتلة يعد خرقاً لاتفاقية جينيف الخاصة بحماية المدنيين فى زمن الحرب.. كما أن سؤال الملك حسين الثانى كان حول تعريف الضفة الغربية وغزة فى رأى الولايات المتحدة.. وقد أجابت الولايات المتحدة بأنها الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ وكانت تحت سيطرة الأردن ومصر.. وهو تعريف تدخل فيه القدس الشرقية بأكملها وبذلك فإن رأى الولايات المتحدة فيما يتعلق بعدم شرعية المستوطنات يشمل مستوطنات القدس أيضا .. لكل هذه الأسباب كنت أرى أن نركز على موضوع المستوطنات.

وعلى أى حال انتهت مفاوضات الحكم الذاتى بعد قرابة العام .. وانتجت عشرات من الوثائق الهامة وتم اقرار عدد منها .. وعند مراجعتها الآن نجد أنها أفضل كثيراً مما تم التوصل إليه فى أوسلو عام ١٩٩٤ فاذا أضفنا إلى ذلك أنه لم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف مستوطن فى الضفة الغربية (باستثناء القدس) لأضفنا إلى أحزاننا صفحة جديدة.

على هامش التفاوض

في إحدى الجلسات .. ولعلها الدورة الأخيرة قبل تعليق المفاوضات .. جلسنا في استراحة قصيرة في انتظار طباعة نصوص نظيفة بعد أن كثر الشطب والتعديل وكان الحديث يدور خفيفاً فالكل يريد أن يعطي تفكيره استراحة قصيرة وفجأة سألنا شاب في الوفد الإسرائيلي مملوء حماسة وجهلاً ورغبة في المعرفة سؤالاً غريباً .. إذ قال .. لماذا تقولون " لا إله إلا الله ".. لماذا تصيغونها بهذه الصيغة السلبية .. فنحن مثلا أي اليهود نقول " الله واحد " وهو كما ترون تقرير واقع وعبارة إيجابية.. إنني أجدها طريقة غريبة للتعبير فأنت عندما تريد أن تصف شئ .. فلا تصفه بأن تنفي عنه شيئاً آخر .. ولم ينتظر الإجابة .. وإنما أطلق سؤاله الثاني .. ولماذا مملكة الأردن تسمى الهاشمية .. إن هاشم مكونة من مقطعين باللغة العبرية " ها " (و) "شم" و"ها" معناها (ال) و(شم) معناها (الاسم) فهاشم معناها الاسم وهو ما يطلق لدينا نحن اليهود على الاسم الأعظم أي الله سبحانه وتعالى ولم ينتظر الاجابة وسأل السؤال الثالث .. وهو وماذا يعني اسم الدكتور

مصطفى خليل!! لأن الفلسطينيين لدينا يطلقون على مدينة " هبرون" اسم " الخليل " فهل هناك علاقة بين الموضوعين .

قلنا له أن المدينة التى تسمونها هبرون هى مدينة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم أى صديقه .. ولذلك سميت مدينة الخليل وأسم هاشم لايمت للغة العبرية بصلة بل هو جد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يسعفنا الوقت باعطاءه إجابة على السؤال الأول وهو الأهم .. وكنت أود أن أقول له أن الرسالة المحمدية جاءت رداً على التحريف الذى أدخل على الديانات السابقة .. جاء لينفى الشرك والتثليث واتخاذ الولد ولذلك جاء ليعلن أنه لا إله معه ولا شريك له ولم يلد ولم يولد .. وأنه لا إله إلا الله.

(٦)
لو أن لنا سى .إن .إن . عربية
التعذيب الشرعى والترحيل الصامت

حدثان .. لو وقع أحدهما على الجانب العربى من الصراع العربى الإسرائيلى ..لأقامت إسرائيل والأعلام العالمى الموالى لها الدنيا ولم تقعدها ولظللت أيها القارئ والسامع والمشاهد أينما كان موقعك على هذا الكوكب الأرضى لا تقرأ ولا تسمع ولا تشاهد إلا ما يتعلق بهذا الحدث. لقد أدانت لجنة متخصصة من خبراء الأمم المتحدة تسمى اللجنة الدولية لمناهضة التعذيب إسرائيل "لتقنينها" التعذيب كوسيلة مشروعة من وسائل الاستجواب واعتبرت ذلك خرقاً صريحاً للاتفاقية الدولية المبرمة عام ١٩٨٧ التى تحرم التعذيب والقسوة والوسائل الأخرى غير الإنسانية وهى الاتفاقية التى صدقت عليها قرابة ١٣٠ دولة من بينها إسرائيل وكان دفاع إسرائيل أنها مضطرة للجوء إلى بعض وسائل "الضغط الجسدى المعتدل" فى حالات استثنائية للحصول على معلومات تساعد فى منع وقوع حوادث إرهابية" ووسائل الضغط

الجسدى المعتدل" هذه تشمل الحرمان من النوم لمدد طويلة وصلت فى بعض الحالات إلى سبعة عشر يوماً، ثم الاهتزاز العنيف الذى أفضى إلى الموت فى إحدى الحالات (حالة الفلسطينى عبد الصمد حريصة الذى مات فى سجون إسرائيل عام ١٩٩٥ وأثبت تشريح الجثة إنه مات نتيجة الاهتزازات العنيفة التى تعرض لها) لقد مرت هذه الواقعة فى الإعلام العالمى مرور الكرام وكان إعلامنا المصرى والعربى اكرم من الإعلان العالمى فلم يلتفت إليها حتى بإيماءة..

لقد كتب الصحفى العالمى ذو الرأى المستقل أنتونى لويس مقالاً فى جريدة النيويورك تايمز قال فيه أن أعداداً كبيرة من الفلسطينيين يرزحون فى سجون إسرائيل ويتعرضون للتعذيب أياماً وأسابيع ثم يفرج عنهم دون تقديمهم للمحاكمة مما يدحض إدعاء إسرائيل بأنهم على صلة بالإرهاب وان أحد خبراء علم النفس الإسرائيلى يقول أن الغرض من التعذيب هو "إرهاب" الفلسطينى وليس الحصول على معلومات.. وان الذين يتعرضون للتعذيب يخرجون فى حالة ذهول ويلوذون بالصمت هم وأقاربهم وأهاليهم وإن هذا هو الهدف الحقيقى الذى تسعى إليه المخابرات الإسرائيلية ..

شين بيت .. كما نشر أيضاً سيرجي شيمامان مراسل نيويورك تايمز في القدس مقابلة مع شاب فلسطيني وصف فيها كيف غطوا رأسه بكيس ذو رائحة نتنة للغاية وشدوا جسمه في وضع ملتو وعرضوه لاهتزازات عنيفة وذلك لمدة ١٧ يوماً متتالية وكانوا يسمحون له بخمس دقائق فقط للطعام وقضاء الحاجة.. ثلاث مرات في اليوم.

أما الصوت الآخر .. وهي للأسف أصوات نادرة وخافتة وأشبه بدبيب النمل الأسود في الليلة الظلماء... لا يسمعها أحد ولا يراها أحد فقد كتب BARTON GELL-MANفي جريدة الواشنجتون بوست مقالاً إفتتحه كهذا:

"قدسية دياب- التي تحمل في أسمها مدينة القدس- هي فتاة فلسطينية حامل في شهرها الثامن وقد خرجت من بيتها في الأسبوع الماضي سعيدة وفرحة واتجهت إلى مبنى وزارة الداخلية الإسرائيلية وهي تظن أنهم استجابوا لطلبها أخيراً وسوف يمنحوا زوجها الإقامة المطلوبة منذ سنوات طويلة.. وتقول قدسية التي ولدت في القدس في العام الثاني للاحتلال إنها أوجست خيفة عندما رأت الموظف يقدم لها ورقة مكتوبة بالعبرية التي لا تعرفها ويطلب إليها التوقيع عليها.. ولم يكن

أمامها سوى التوقيع.. وبعد أن وقعت طلب منها بطاقة الإقامة فأعطته إياها.. فقال لها الآن أمامك أنت وزوجك وأولادك خمسة عشر يوماً لمغادرة القدس ولا تعودى لها بعد ذلك وتبكى "قدسية" إنها لا تعرف ماذا تفعل ولا أين تذهب ولا كيف وأين ستضع طفلها.. فقد فقدت الإقامة ومعها كل الحقوق بما فى ذلك الرعاية الصحية وإمكانية دخول المستشفي للولادة .. ولا كيف تحصل على شهادة ميلاد لمولودها الجديد.

ويقول المراسل أن هناك أكثر من ألف فلسطينى تعرضوا لإلغاء الإقامة وسحب البطاقات..

وأود أن أضيف من جانبى أن هذا "الترحيل الصامت" أو "التطهير العرقى الصامت" كما أسماه أبو عمار مستمر بلا هوادة .. فقد أبلغنى السفير الفلسطينى ربحى عوض وهو من مواليد القدس انهم سحبوا منه ومن عائلته بطاقات الإقامة التى تشير إلى أنهم من مواليد القدس وصرفوا لهم بطاقات مدون بها أنهم من مواليد بيت لحم.

ويقول مراسل الجريدة الأمريكية أن هذه السياسة قد حولت أعداداً كبيرة من فلسطينى القدس إلى مهاجرين غير

شرعيين فى مدينتهم وذلك بين ليلة وضحاها .. وعندما سأل وزير داخلية إسرائيل عن ذلك لم يتردد فى تأكيد هذه السياسة لأن هدف وزارته هو "الحيلولة دون" إغراق" القدس بالعرب والعمل على زيادة السكان اليهود وأضاف الوزير الإسرائيلي: "سنحارب معركة القدس بكل ما نملك من وسائل.. بالقانون وبالبناء وبأى وسائل أخرى ولا يهم نوع الوسائل المستخدمة" ومن بين هؤلاء الذين سحبت إقاماتهم، هناك ١٠٥ من العرب الأمريكيين الذين يحملون الجنسية الأمريكية الأمر الذى أضطر المشرفة على الشئون القنصلية بالسفارة الأمريكية الى التدخل مع وزارة الداخلية الإسرائيلية- وبلا جدوى طبعاً _ وتقول السيدة كاتى رايلى رئيسة القسم القنصلى الأمريكى أنها عقدت خمسة اجتماعات مع مسئولى وزارة الداخلية الإسرائيلية ووجهت إليهم عدة تساؤلات من بينها: لماذا الآن وبعد ٣٠ سنة من الاحتلال بدأتم فى سحب بطاقات الإقامة؟ ولماذا أوقفتم برنامج لم شمل الأسر؟ وقد أجاب وزير الداخلية على السؤال الثانى " إن السبب هو نقص عدد الموظفين فى وزارة الداخلية فقد بلغت طلبات العودة فى إطار لم الشمل للفلسطينيين

حوالى ٨٠٠٠ طلب منذ عام ١٩٩٤ ويشير المحرر إلى أنه فى نفس الفترة قامت وزارة الداخلية بالتعامل مع ٢٣٦٢٨٨ طلباً من اليهود المقيمين في الخارج ووافقت عليهم..

"ويل للمطففين.. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" صدق الله العظيم...

(٧)
العشاء الأخيرة فى مزرعة الحيوان

طالعت في صحف صباح أحد أيام أغسطس ٢٠٠٠ الخبر التالي حول زيارة الرئيس الأمريكي لنيجيريا :

" كان آخر ما توقعه الرئيس الأمريكي بيل كلينتون عندما جلس مع الرئيس النيجيرى أوبا سانجو أمام عدسات الكاميرات أن يغني له الرئيس النيجرى أغنية ، ويشاركه في ذلك كبار المسئولين النيجيرين حيث انخرطوا في أداء حماسي لأغنية عيد الميلاد الشهيرة مرددين " عيد ميلاد سعيد" وذلك بمناسبة بلوغ الرئيس الأمريكي عامة الرابع والخمسين ، وقد بدت الدهشة على كلينتون الذى أمسك رأسه بيديه بينما إنخرط معظم النيجيرين الحضور في الغناء ومعهم أوبا سانجو ، قهقه كلينتون وطرق المنضدة من شدة الضحك وقال وسط الضحك والتصفيق " أعجبني ذلك جداً وجعلنا في حالة جيدة من النشوة ".

لقد ذكرني هذا الخبر بموقف مشابه حدث أثناء تناولنا طعام العشاء في الفندق الذى كانت تعقد فيه مفاوضات

الحكم الذاتي الفلسطيني في ضاحية هرتزيليا بالقرب من تل أبيب في عام ١٩٨٠ .. مع الفارق أن الغناء في هرتزيليا لم يعجبنا كما أعجب كلينتون ولم يجعلنا في حالة جيدة من النشوة ".

بل على العكس أصابنا بشئ من الاكتئاب كانت الجلسة تعقد على مستوى الوزراء هذه المرة .. وكانت الوفود الثلاثة تجلس في موائد منفصلة متناثرة كل وفد على حدة تقريبا ، بينما كان الوزراء يجلسون مجتمعين حول مائدة مستديرة كبيرة .. د. مصطفى خليل رئيس الوفد المصري ود.بطرس غالي ويوسف جورج رئيس الوفد الإسرائيلي وزملائه من الوزراء الإسرائيليين .

كنا أعضاء الوفد المصري نجلس في مائدة واحدة قريبة من مائدة رؤساء الوفود ونتبادل حكايات حول غرائب العادات اليهودية .. فمن قائل هل تعلمون أنه يوجد في الفندق مطعم مخصص للأفطار فقط ولا تقدم فيه وجبات أخرى. وذلك لاعتقادهم بعدم جواز تقديم اللحم واللبن في صحن واحد.. فعلق ممثل المراسم المصري المرافق لنا قائلاً .. "دول جننوني" عندما أقمنا لهم عشاء في القاهرة .. نزل واحد منهم معي

إلى المطبخ لكى يتأكد بنفسه من أن الطقم الصينى الذى سيأكلون فيه جديد ولم يفض غلافه حتى يتأكد من أنه لم يقدم فيه لبنا قبل الآن !! وقال ثالث: أنهم يتركون أباريق القهوة على نار هادئة من قبل غروب يوم الجمعة حتى يمكنهم تقديمها مع الأفطار صباح السبت دون أن يمسوا النار . وبينما حاول أحدنا أن يفلسف ذلك بقوله أنهم يحترمون تقاليدهم وشرائعهم على غرابتها ولا يخجلون منها ، ولعل ذلك يعلمنا درساً ألا نزدرى ثقافتنا ونتهافت على العادات الغربية وبينما نحن في ذلك الحديث إذا بضجة وجلبة على المائدة الرئيسية وإذا بالوزراء وقوفا ينشدون " عيد ميلاد سعيد يا يوسف بورج " ، بينما يضع النادل كعكة مستديرة كبيرة بها شمعة واحدة على المائدة . بينما يوسف جورج يجلس فى وقار وخجل مطأطأ الرأس وقد أخذته المفاجأة .. فوجدت نفسي شارداً أتذكر تلك الصورة العميقة والمؤثرة التى خطها قلم جيمس أورويل فى كتابه الأشهر "مزرعة الحيوان " وهى المزرعة التي استولت فيها الحيوانات بقيادة الخنازير ومساعدة الكلاب على الأمور وطردوا صاحبها الإنسان وقرروا إدارتها لصالحهم معلنين نقمتهم على بنى البشر

ومنادون بمبـــادئ المســاواه بين ذوى الأرجل الأربع.. فى مجتمع بلا طبقات ، إلا أن الخنازير وجدت أنه لابد لها من التعامل مع بنى البشر حتى يمكن تصريف المحصول وشراء لوازم الزراعة وقطع الغيار وهكذا بدأ التفاوض سراً فى البداية ثم علناً ثم توقيع الاتفاق ثم العشاء الذى أقامته الخنازير لأصحاب المزارع المجاورة بينما تجمعت الحيوانات حول المنزل الكبير الذى كان يقم فيه صاحب المزرعة.. وأخذوا ينظرون من النوافذ فـوجـدوا أن الخنازير ترتدى مـلابس الإنسان وقد أخذ بعضهم يمشى على قدمين.. والكؤوس تدور بين الجانبين والأصوات تعلو بالغناء وأخذت الحيوانات تتفرس فى وجوه الآدميين والخنازير فلم تجد فروقا تذكر فقد تقاربت الملامح وتشابهت الأشكال حتى أنه أصبح من الصعب التفرقة بين الفريقين . فسالت الدموع من أعين الحيوانات وهم وقوف خلف زجاج النوافذ.

الفصل الخامس:

وارســـــــــو

١ - وارسو .. المدينة التى بعثت من جديد

٢ - المملكة

٣ - وعودة إلى مصر

(١)
وارسو المدينة التى بعثت من جديد

وارسو في أكتوبر ١٩٨٠ :

ها نحن قد حط بنا الرحال في وارسو العاصمة الجميلة لبولندا.. ذات الحدائق الغناء والشوارع الفسيحة النظيفة تحيطها الأشجار الباسقة والخضرة المنسقة.. مدينة عالم الفلك كوبرنيك والموسيقار الخالد شوبان ومكتشفة الذرة مدام كورى.. وارسو التى أراد الألمان تحطيم القومية البولندية من خلال تدميرها وأعادت الإرادة البولندية بناءها على أجمل نسق..

انتهت جولتنا السياحية بمدينة وارسو وأخذنا نقطع الطريق داخل حدائق شويان بخطى سريعة متجهين إلى الأتوبيس.. كان يخيم علينا جو ثقيل من كثرة ما سمعناه من صور المآسى الإنسانية والمشاهد المروعة والأحداث الدامية المتتالية التى عاشتها هذه المدينة العريقة الصامدة.

فلم تكن جولة سياحية بالمعنى المألوف لأن كل بقعة فى

وارسو تحكى قصة حزينة، وكل إنسان له تجربة شخصية إما مع الاحتلال النازى أو فى الانتفاضات العديدة التى تلت ذلك.. حتى المرشدة السياحية العجوز التى كانت تبدو كجنرال متقاعد يحكى ذكريات المعارك القديمة لها قصة مع الاحتلال النازى.

فعندما توقف الاتوبيس على مشارف المدينة القديمة كان علينا أن نتم جولتنا سيرا على الأقدام حيث أنه غير مسموح بدخول السيارات فى شوارعها الضيقة.. وقد قادتنا الحوارى الضيقة إلى ميدان فسيح ذى أضلاع متساوية وتصطف حوله مبان قديمة ذات طراز بديع وهنا إستوقفتنا المرشدة وأمسكت بألبوم كبير فى يدها واشارت إلى إحدى الصور وقالت هكذا كان يبدو الميدان قبل الحرب العالمية الثانية.. ولم نجد هناك أى اختلاف يذكر بين الصورة وبين الواقع.. ثم طوت الصفحة.. وقالت وهكذا كان بعد الحرب.. فإذا به أكوام من الحجارة والتراب.. ثم أشارت حولها يمنة ويسرة وقالت وهكذا أعيد بناؤه كما كان تماما.. وليس هذا الميدان فحسب بل المدينة بأكملها .. لقد حطمها الألمان تحطيما كاملا وبناء على خطة موضوعة.. فقد كان هدفهم هو القضاء على الشعب

البولندى والقومية البولندية عن طريق القضاء على حضارة الشعب ورمز نضاله الممثلة فى عاصمته وذلك لإفساح المجال للتوسع الألمانى تطبيقا لنظرية المجال الحيوى.

داخل الميدان :

.. تقدمنا داخل الميدان.. ولاحظنا أن كل مبنى يتميز برسم معين على واجهته.. فقد حرصوا على إعادة كل التفاصيل القديمة.. فلم يكن هناك ترقيم للمبانى فى الماضى بل كانت تتمايز عن بعضها بما يعلوها من رسومات.. قالت المرشدة لقد حرصنا على إعادتها كما كانت تماما ثم أشارت لنا أن نتقدم حتى اقتربنا من أحد المبانى وقالت هل ترون هذه اللوحة النحاسية أرجو أن تقرأوا هذا الرقم المنحوت عليها وقرأنا رقم ٥٣٧ وكان بجوار اللوحة أماكن لوضع الشموع وقوائم نحاسية طويلة.. قالت ما سأقصه عليكم لم أقرأه فى كتب التاريخ أو أسمعه فى فصول الدرس.. بل شاهدته بعينى هاتين.. كنت فتاة صغيرة فى ذلك الوقت من شتاء عام ١٩٤٣ وكان صباحا قارص البرودة حيث وصلت درجة الحرارة إلى ٣٠ تحت الصفر واضطررت لمغادرة منزلى لبعض حوائجى وما أن خرجت إلى هذا الميدان حتى أمر الجنود الألمان كل

الموجودين فى الميدان بالتوقف دون حراك.. كل فى مكانه. وكنا نظن أن ذلك نوع من التعذيب أن نترك هكذا فى درجة التجمد.. ثم بدأت حاملات الجنود تدخل الميدان وكانت شحنتها شبابا بولنديا لا يتجاوز أعمارهم العشرين ووضعوهم على هذا الحائط وفتحوا عليهم مدافعهم الرشاشة واختلطت دماؤهم بالثلوج ثم حملوا الجثث بلا احترام ولا اكتراث وألقوها مرة أخرى داخل اللوارى التى أحضرتهم وغادروا الميدان كما جاءوا أول مرة.. وهذه اللوحة تمثل عددهم وهذه الشموع تضاء مرة فى كل عام فى ذكراهم.

وظلت وارسو على عنادها فى مقاومة الاحتلال النازى حتى توجت ذلك بانتفاضتها الشهيرة فى أول أغسطس عام ١٩٤٤ حين نجح رجال المقاومة فى السيطرة على العاصمة لمدة ثلاثة وستين يوما.. وفقدت خلالها وارسو مائة وخمسين ألف قتيل فى ملحمة قتالية أشبه بالأساطير.. وما أن استعاد الألمان سيطرتهم على العاصمة حتى شرعوا فى طرد كافة سكانها إلى خارج المدينة تمهيدا لتطبيق الخطة النهائية للتخلص من المدينة (المكروهة).

وقد كان تعداد وارسو قبل الحرب يبلغ ١,٣٠٠,٠٠٠

نسمة قتل منهم أثناء سنوات الحرب والاحتلال الخمس ٨٠٠ ألف نسمة وطرد الباقون أو فروا إلى خارجها بعد القضاء على الانتفاضة الوطنية.

أما الناجون فلكل فمنهم قصة مع الاحتلال النازى تتداولها الأجيال . فصديقتنا طبيبة الأسنان البولندية تقول :

أنها تحمل معزة خاصة لكل من مصر والبرتغال وذلك بسبب ما حدث لها فى طفولتها .. فقد كان عمرها حوالى ١٢ سنة عندما دمر الألمان وارسو بأكملها عام ١٩٤٤ انتقاما للانتفاضة التى ثارت ضدهم.. فوجدت أمها الطبيبة نفسها فى الشارع بلا مأوى ومعها هذه الطفلة.. وكان أحد المبانى القليلة الباقية فى وارسو مبنى كان مخصصا كمنتدى للجالية الإسبانية والبرتغالية، وقد تم تحويله إلى مستشفى، فذهبت أمها إليه وعرضت عليهم العمل به مجانا مقابل السماح لها بالإقامة فيه.. وبالفعل أقامت الأم بالمستشفى تعمل طول النهار وجزء كبير من الليل فى رعاية المرضى والجرحى.. ووجدت ابنتها الطفلة ملاذا فى شيئين: الكتب التى كانت بمكتبة النادى ومعظمها عن تاريخ مصر القديمة ثم كمية ضخمة من البسكويت والملبس " صنع فى البرتغال " فكان

ذلك غذاء الروح والجسد لها من مصر والبرتغال.. وإلى الآن تستشعر طعم الملبس البرتغالى أبو لوز والساعات الحلوة التى أمضتها مع تاريخ مصر القديم .

أما قصة إعادة بناء وارسو فهى ملحمة تاريخية ليس لها نظير ولا يتسع لها المجال الآن.. إلا أنه تجدر الإشارة إلى قرارين هامين كان لهما الفضل فى إعادة بعث وارسو إلى الوجود: أولهما قرار الحكومة البولندية الصادر فى ١٨ يناير ١٩٤٥ .. أى ثانى يوم تحرير وارسو باستمرار اعتبارها عاصمة لبولندا ، والقرار الثانى وهو الأهم هو قرار شعبها واختيار سكانها بالعودة إليها منذ اليوم الأول للتحرير للعيش داخل الأنقاض ووسط الألغام فى ظروف الشتاء القارس. ففى خلال ايام عاد إليها أكثر من مائة ألف شخص.

وهكذا دبت الحياة شيئا فشيئا فى المدينة العتيدة حتى عادت أجمل مما كانت، إلا أنك تلحظ شيئاً غريباً فى المنظر العام.. مناظر متداخلة من عصور مختلفة.. عربات تجرها الخيول وتحمل فحم التدفئة فى قلب العاصمة وطلمبات للمياه فى الضواحى وآبار مياه مغطاة بغطاء خشبى سميك.. وأخذنا نسمع قصصا تروى عن النظام الشيوعى وما أحدثه

نى البلد.. فها هو عم أحمد عامل الخدمة بالسفارة الذى أمضى قرابة الثلاثين عاما فى وارسو يحكى لنا كيف كان البولنديون يلتفون حول سيارة السفارة الفيات الجديدة يتفرجون عليها منبهرين.. وكيف أن أحدهم عرض أن يقوم بغسيل السيارة كل يوم مجانا لمجرد أن يلمس السيارة وأن يفخر على أقرانه بأنه على اتصال بالعالم الخارجى .. وقد شاهدت بنفسى علب السفن آب الفارغة تباع باعتبارها من المقتنيات.. أما الطوابير فحدث عنها ولا حرج.

فلا شك أن النظام قد أسهم فى استفحال هذه الظاهرة.. فالبولندى يقف فى طابور أى شىء حتى ولو كان شيئا لا يلزمه.. وعند سؤال أحدهم: لم تقف فى طابور السجائر وأنت لا تدخن ؟ قال: لكى أقايض عليها بسلعة أخرى.. فالنقود وحدها لا تكفى للشراء.. ولابد من شىء معها.. إما سلعة أخرى أو حوافز من أى نوع.. كانت زوجتى تضع علبة سجائر فى كيس وتدفع به للبائعة التى تضع فيه زجاجة اللبن.. وكانت طبيبة الحى المقنن لها عشرة مرضى فى اليوم.. عندما تدخل للعيادة وتجد عدد المرضى يفوق العشرة.. تقول لرقم ١١ و١٢.. إن أردتم أن اكشف عليكم اليوم بعد انتهاء

الوقت فعليكم بشراء حاجياتى من السوق ويكون أمام المرضى الخيار إما ينصرفوا ويعودون فى اليوم التالى وإما يقفوا فى الطوابير يقضون حوائجهم وحوائج الطبيبة، ودائما ما يكون اختيارهم هو ما اقترحته الطبيبة.. فهى صفقة رابحة.. عصفورين بحجر واحد !!

والإنتاج فى بولندا شأن كل الدول الشيوعية لا يتم وفقا للعرض والطلب بل وفقا لقررات التخطيط المركزى ولذلك فالاختلالات واضحة للعيان.. فأنت تجد أشياء ترفيه مثل جهاز اكتشاف المعادن الذى تمرره على الحائط قبل دق المسامير ليوضح لك أماكن وجود المواسير وخلافه.. بينما لا تجد الأساسيات والضرورات من الطعام والدواء.. فعندما اختفى السكر من السوق مثلا.. كانت أرفف المحلات مليئة بأنواع شتي من المربى.. لا شك أن صنع هذه المربى قد سحب كميات كبيرة من السكر من السوق.. وقد نصحنى صديقى البولندى باستخدام المربى لتحلية الشاى.. وقال أننا هكذا نفعل.

كنا نذهب إلى الفنادق الكبرى ونطلب أشياء لا لتناولها فى الفندق ولكن لنأخذها معنا إلى المنازل.. وأذكر أن ابنتى طلبت

مرة كوبا من اللبن فجاء بدون سكر وعندما طلبت السكر قيل لها أن السكر يخرج مع القهوة والشاى فقط.. وأخيرا تقرر عدم السماح بالتردد على الفنادق إلا للنزلاء فقط..

ولن أنسى زيارتى لجامعة وارسو العريقة بصحبة الدكتور/ محمود فرويز المستشار الثقافى للسفارة للاتفاق على إقامة يوم ثقافى مصرى.. فقد استقبلنا مدير الجامعة بحفاوة شديدة وسألنا ماذا نريد أن نشرب فقلنا له شاى .. فلاحظت الوجوم على وجهه ثم تردد قليلا وقال لقد خيبتم أملنا.. فنحن لا يمكننا أن نشرب القهوة إلا فى مناسبة وجود زوار أجانب لأن القهوة مستوردة بالعملة الصعبة بينما الشاى من الصين فى إطار الصفقات المتبادلة.. فعدلنا الطلب إلى القهوة طبعا.

وزادت الاضطرابات العمالية التى بدأها ليخ فاونزا من حدة الأزمة الاقتصادية وساهمت كلتا الأزمتين فى استفحال الأخرى.. وكثرت الاتهامات المتبادلة فالحكومة تتهم العمال بأنهم السبب الرئيسى فى الأزمة والعمال يتهمون الحكومة بأنها تتعمد زيادة الأزمة سوءا لتلقى اللوم على العمال.. والنتيجة هى ازدياد الأزمة سوءا حتى أصبح لا يرى فى

محـلات وارسـو سوى الخبز والماء والأرفف الخـالية ولا ترى فـي شـوارعـهـا سـوى اللون الأزرق والرمـادى للغـازات المسيلة للدمـوع والنيـران المشتعلة في الأعـلام الشيوعية الحمـراء.

وبالمناسبة فإن علم بولندا لم يتغير عبر العصور بالرغم من تغير الأنظمة من الملكية إلى الجمهورية إلى الشيوعية إلى نظام الاقـتـصـاد الحـر.. إلا أن العلم ذو اللونين الأبيض والأحمر لم يتغير لأنه رمز القومية ووحدة التراب وهى القومية التى حاولت النازية القضاء عليها.

أما الذى تغير عبر العصور فهو خريطة بولندا.. فأنت إذا وضعت أمامك عدة خرائط تاريخية لبولندا متراصة فستجد أن العاصمة وارسو تبدو مرة وهى قريبة جدا من الحدود الشرقية للدولة أى من الاتحاد السوفيتى ومرة أخرى تبدو قريبة جدا من الحدود الغربية مع ألمانيا لأن مشكلة بولندا أنها تقع بين قوميتين كبيرتين .. ألمانيا وروسيا.. وهى مطمع لكل منها.. فمرة تجتاحها الجيوش الألمانية وتستولى على أجزاء من غربها ولذلك تقترب العاصمة وارسو من الحدود الغربية ومرة أخرى تقتطع روسيا أجزاء وتضمها إليها أو إلى

ليتوانيا الداخلة فى الاتحاد السوفيتى وبذلك تقترب العاصمة من الحدود الشرقية.

ومرة أخرى اقتسمتها الدول المجاورة بالكامل ولم تترك فيها إلا العاصمة التى أصبح اسمها إمارة وارسو.

***

اشتدت الاضطرابات وكادت تصل إلى حالة الفوضى فكان لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر خاصة مع ازدياد الشائعات حول التدخل الروسى المحتمل.. وفى ليلة ١٣ ديسمبر ١٩٨١ نزل الجيش البولندى إلى الشوارع وأعلنت الأحكام العرفية وتمت السيطرة المحكمة على كل شىء.. كل شىء فى بولندا تم عسكرته حتى مذيعى التليفزيون أرتدوا الزى العسكرى.. وتم عسكرت كل شىء واعتبر العمل فى ٣٠٠ مؤسسة كالعمل فى الميدان بتعرض الممتنع عنه للإعدام رميا بالرصاص وقطعت جميع أنواع الاتصالات ومنع الخروج أو الدخول إلى المدن إلا بتصريح وأغلقت جميع محطات البنزين لإعاقة الناس عن الحركة.

كانت الحراسة مكثفة على وجه خاص حول تمثال لينين وكانت الجماهير فى الأيام الأولى تنظر إلى الجنود بازدراء

ويقولون لهم يا حراس لينين.. إلا أن ذلك انتهى بعد أيام قلائل وحل محله شعور عميق بالخوف من صرامة الإجراءات وانتشار القصص حولها.. وقد لاحظت أن الناس الذين يكسحون الثلج فى الشوارع هم من الناس العاديين من مختلف الأعمار ومن الجنسين ويرتدون الملابس العادية وبعضهم سيدات بالبوت والبلاطى الفرو.. ثم علمت أن هؤلاء هم مخالفى حظر التجول.. أى واحد _ مهما كان مركزه _ يضبط فى الشارع بعد حظر التجول يمضى الليلة فى السجن ثم يسلم جاروفا فى الصباح ويمضى النهار فى تنظيف الأرصفة من الثلوج.

أعجبنى تعليقا يصف الحالة فى بولندا فى تلك الأيام.. يقول أن بولندا كانت أشبه بمنزل مفتح الأبواب والنوافذ تنبعث منه أصوات ضجيج عالية وأناس كثيرون يدخلون ويخرجون بينما جميع حجراته مضاءة.. وفجأة أطفأت الأنوار وأغلقت الأبواب والنوافذ وخيم على المنزل صمت عميق .

نعى الاتحاد السوفيتى

استمر الحال يسير من سيئ إلى أسوأ حتى ساد شعور جارف بالتشاؤم وفقدان الأمل ، وكان توافق الآراء القومى هو أنه لا أمل فى التغيير إلا أن تتغير موسكو نفسها .. وهذا أمر بعيد المنال على الأقل خلال جيلنا _ كما كان يقول الأصدقاء البولنديون أو جيل أبناءنا _ كان ذلك فى عام ١٩٨١ .. وفى عام ١٩٩١ أى بعد عقد واحد من السنين إنهار العملاق السوفيتى دون أن يقربه أحد ، وكان رهيبا فى سقوطه المفاجئ كما ذكرت صحيفة الهرالد تريبيون التى نعته إلى قرائها فقالت أنه لفظ آخر أنفاسه متبرءاً من النظرية مقطع الأوصال مفلسا جائعا .. ومرعبا حتى فى موته ، أما صحيفة البرافدا _ لسان حال الإمبراطورية السابقة _ فأشارت إلى أن ردود الفعل تباينت بشدة لهذا الموت .. فبينما صاح البعض فرحا مهللا انتهت المهزلة La Commedia Fini-ta ، كان البعض الآخر يهيل الرماد على الرؤوس ويرفع آخرون أيديهم إلى السماء متسائلين فى وجل عما يخبئه لهم القدر وهم يرقبون مأخوذين آخر الرؤساء السوفيت وهو

يستسلم ببطء ووقار .. لقد سقطت الأغلال ولم يعد هناك أى محذور أو محظور .

ومرت عشر سنوات أخرى وإذا بعشر دول من أوروبا الشرقية ودول البلطيق على رأسها بولندا تتأهب للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى بعد أن رتبت أوضاعها الداخلية وأزدهر اقتصادها واستعاد المواطن فيها حريته وكرامته.

(٢)
المملكة

فى البلاد الصغيرة أو المتخلفة أو المنعزلة أو تلك التى تقل فيها الأنشطة الترفيهية والثقافية ويربو فيها الوقت عن حاجة العمل تتوطد العلاقات بين الدبلوماسيين من مختلف الجنسيات وتنشأ بينهم روابط صداقة حقيقية تمتد لتشمل أفراد الأسرة من زوجات وأبناء ، وبالرغم من أن وارسو مدينة كبيرة ولا تعد منعزلة بالمعنى الجغرافى للكلمة فبولندا تحيط بها ألمانيا والاتحاد السوفيتي وتطل على دول الشمال .. إلا أن النظام الشيوعى كان يخيم على أرضها وسمائها ويجعلها عاصمها تبدو كئيبة وجافة يخيم عليها الخوف والصمت وصحفها متشابهة ومملة والتلفزيون لا يمكن تحمله حتى عندما يعرض أفلاما أجنبية فهو يعرضها مصحوبة بصوت المذيع الذى يقرأ الحوار بنفسه سواء أكان المتحدث رجل أم امرأة أم طفل.. ولا يوجد من وسائل الترويح إلا البالية البولندى العريق ..

وكان على رأس البعثة الدبلوماسية فى ذلك الوقت السفير

اللواء طه المجذوب وهو من القلائل الذين استطاعوا أن يمزجوا بين العسكرية والدبلوماسية بما يخدم موهبته في كلا الحقلين .. كنا نمضي الساعات الطوال بعد ساعات العمل في شتاء وارسو الطويل في أحاديث ممتدة .. أو في قراءة الكتب التي ننجح في استيرادها من الخارج وقد أبلغني يوماً صديق هولندي هو المستشار لاجندايك مستشار سفارة هولندا أنه يقرأ هو وزوجته كتابا ممتعاً عن السعودية اسمه المملكة فسارعت بالكتابة إلى الناشر الذي بادر بإرساله لي .. والغريب في الأمر أنني ولاجندايك عملنا بالسعودية كسفراء لبلدينا بعد ذلك والتقيت به هناك وتذكرنا هذا الكتاب ، وقد مررت في الكتاب بقصة طريفة عن أول لقاء بين الملك عبد العزيز آل سعود والرئيس الأمريكي روزفلت ...كان ذلك في عام ١٩٤٥ . وقد أرسل روزفلت إحدى المدمرات الأمريكية لكي يستقلها عبد العزيز إلى مكان اللقاء وهو البحيرات المرة في وسط قناة السويس.. ويقول المؤلف أن المسئولين الأمريكيين في المدمرة فوجئوا بموكب عبد العزيز يتبعه عشرات الحريم والعبيد والأتباع ويتقدمه موكب آخر مكون من مائة خروف.. فكان عبد العزيز لا يأكل إلا لحما صابحا

طازجا من الضأن.. وبعد مفاوضات وإصرار من جانب الملك.. قيل له: ولكن لماذا مائة خروف؟ والرحلة لا تستغرق أكثر من سبعة أيام ذهابا وإيابا.. فكان جوابه أنه لن يأكل وحده وليست الحاشية فقط ولكن البحارة الأمريكيين.. فقيل له: أنهم لو أكلوا طعاما غير المعد لهم فسيتعرضون للمحاكمة.. وأخيرا تم الاتفاق على السماح بسبعة رؤوس فقط وتم ذبح أولها عندما شرعت الباخرة فى التحرك من الميناء.

ثم جاءت المشكلة الثانية وهى عدد الأفراد المرافقين للملك حيث أن القنصل الأمريكي سبق أن أخطر رئاسته بأن الوفد المرافق مكون من ١٢ فردا .. ولكنه فوجىء بمرافقين آخرين لم يكونوا فى الحسبان من العبيد والخدم ومعدو القهوة والطهاة، وأسفرت المفاوضات عن ضغط العدد إلى ٤٨ فردا على أن يناموا على سطح الباخرة حيث أن الكبائن لا تكفى .. فأخذوا معهم خيمة بمعداتها ونصبوها على سطح المدمرة وفرشوها بالسجاجيد وأشعلوا النيران فى المواقد التى أحضروها وأعدوا الطعام.. والقهوة العربية.. وكانت أصوات المرح والهرج تصل إلى أسماع الملك ورائحة القهوة العربية تتسلل إلى كابينته الصامتة الكئيبة التى يقبع فيها وحده..

فما كان من الملك إلا أن صعد إلى السطح وانضم إليهم وأكل معهم وشرب القهوة ثم نام فى الخيمة سعيدا راضيا!!

وبالرغم من ذلك فقد كان تأثيره على روزفلت أشد من أى برامج عربية للدعاية فقد شرح له مشكلة فلسطين شرحا مبسطا مقنعا جعل روزفلت يقول عند عودته: أنه فهم المشكلة بطريقة أفضل مما شرحته جميع مذكرات وزارة الخارجية الأمريكية.. وعندما سأله روزفلت عما نفعل باليهود الذين شردهم وعذبهم هتلر وهل لديه حل لمشكلتهم ؟ قال عبد العزيز: نعم لدى حل.. أعطوهم أفضل وأخصب أراضى ألمانيا.. هكذا نفعل نحن العرب بالقبائل المعتدية عند هزيمتها..

ويقول المؤلف أن روزفلت كان شديد الاحترام لعبد العزيز ومعتقداته حتى أنه كان يعطل المصعد بين الأدوار حتى ينتهى من تدخين سيجارته حتى لا يدخن فى حضرة عبد العزيز.. أما تشرشل فقد وضع زجاجة الويسكى على المائدة وأشعل السيجار وقال لعبد العزيز أن هذين الشيئين هما دينى الرسمى.. فنظر عبد العزيز إلى معاونيه وقال: والله ما بعد الكفر ذنب !!

***

(٣)
عودة إلى مصر

الأمن المركزى.. من لويس الرابع عشر إلى ستالين وبريا

عدت من بولندا بعد أن عاصرت أحداثها الجسام ما بين أعوام ١٩٨٠ و, ١٩٨٤ . فقد كان وصولى إليها بعد أسابيع قلائل من قيام لينج فاونزا عامل الكهرباء فى ترسانة جدانسك البحرية بإغلاق أبوابها وقيادة اعتصام للعمال بها، كان ذلك الشرارة الأولى لبدء أكبر حركة تمرد فى تاريخ بولندا الحديث والذى مهد للتغيرات التاريخية التى حلت بالكتلة الشرقية وانتهت بانهيار الاتحاد السوفيتى قرب نهاية التسعينيات.

أقول عدت إلى مصر فوجدت تمردا من نوع آخر.. غريب على الثقافة المصرية .. معزول فى نطاقه ومحدود فى نتائجه.. وهو التمرد المسلح لقوات الأمن المركزى.. وبالطبع كان هذا الحدث غير المسبوق هو محور أحاديث المجتمع الدبلوماسى بالقاهرة.. وفى إحدى هذه المناسبات الدبلوماسية كان الحديث يدور حول صور العنف الذى استشرى فى العديد من مناطق العالم وقال قائل: " أن مصر تختلف عن كل ذلك فهى

أمة وسطية بمعنى الكلمة ولا تنحو نحو التطرف فى أى شىء، وهنا انبرى أحد الدبلوماسيين الغربيين قائلا : أنه سمع هذه المقولة منذ وصوله إلى مصر ومن كل مصرى قابله ولكن أرجو ألا تركنوا إلى ذلك فإن الثقافات تتغير والمصريون الآن قد تعرضوا لثقافات أجنبية واغتربوا لأول مرة فى التاريخ بأعداد تصل إلى الملايين واهتزت بعض القيم وتهاوت مفاهيم قديمة وتسللت أفكار أخرى.. إن الثقافات فى عصر ثورة المعلومات تتغير بسرعة ولم يعد هناك شىء من قبيل المسلمات .

الأمن الداخلى .. مركزى أو لا مركزى :

شغلتنى هذه القضية لبعض الوقت وأخذت أبحث فى قضية الأمن الداخلي فوجدت أن قضية الأمن الداخلي وهل يكون مركزيا فى تنظيمه أو لا مركزى.. قضية حسمت منذ أمد طويل لصالح اللامركزية .. فعلى أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية مثلا شرعت معظم الديموقراطيات الغربية فى اتباع أسلوب اللامركزية بالنسبة لقوات الشرطة حتى لا تصبح القوة المركزية لها صفات الميليشيات العسكرية أما البلاد التى مزجت بين النظامين فقد اتبعت أسلوب اللامركزية كأساس ثم قامت بإنشاء قوة صغيرة ذات كفاءة عالية ومكونة

من أفراد منتقين ومنتمين انتماءا دائما لهذه المؤسسة كدرع للأمن والنظام الداخلى ولمعاونة الشرطة العادية المكلفة بمهام تقليدية.

لويس الرابع عشر والبوليس المركزى :

وتذكر الموسوعة البريطانية تحت عنوان " مخاطر البوليس المركزى " أن فرنسا كانت من أوائل الدول التى أنشأت قوة للأمن المركزى كدرع للحكم وكانت تسمى " البوليس السياسى " وكان ذلك فى عهد لويس الرابع عشر واستشرى أمر هذه القوة حتى أصبحت تتدخل فى كافة شئون الحياة وحتى فاخر رئيسها المسيو سارتين مرة بقوله للملك : " ما من ثلاثة يتناجون فى باريس يا مولاى إلا وأحدهم من رجالى".

تجربة ألمانيا واليابان بعد الحرب :

أما فى ألمانيا فإن نظرية " لا مركزية الشرطة " لها جذور راسخة فى الأحقاب المختلفة للتاريخ الألمانى باستثناء فترة "الرايخ الثالث ".

وفى اليابان _ وبعد انتهاء حكم المؤسسة العسكرية - قامت الحكومة الديموقراطية فى اليابان بحل الشرطة المركزية

وإعادة تنظيمها على أساس إقليمى وإخضاعها للرقابة الديموقراطية وتم إنشاء شرطة خاصة صغيرة الحجم - عالية الكفاءة لمكافحة الشغب .

بريطانيا تعدل عن إنشاء شرطة مركزية :

أما المملكة المتحدة فلا توجد بها شرطة مركزية على الإطلاق، وإن كانت قد فكرت فى عام ١٩٦٢ فى إنشاء مثل هذه القوة وشكلت لجنة لدراسة هذا الاقتراح وانتهت اللجنة إلى رفض الفكرة وجاء فى تقريرها : " إن القوات الصغيرة الخاضعة لإشراف المجالس المحلية تكون لها حساسية أكبر للرأى العام وأن إنشاء القوة المركزية سيفقدنا الرقابة الديمقراطية عليها وهى الرقابة التى إن فقدت فلا يمكن استعادتها إلا بكفاح مرير ".

الرقابة الديمقراطية والانتخاب الشعبى فى الولايات المتحدة :

أما الولايات المتحدة فهى أكثر دول العالم لا مركزية فى الشرطة ووصلت بها الرقابة الديمقراطية إلى حد تعيين County Sheriff وهو ما يعادل مأمورى المراكز عندنا بالانتخاب الشعبى المباشر .. وبالطبع فإن ذلك يتم فى ظل

توازنات عـــديدة بين سلطات المدينة والكاونتى والولاية والسلطات الفيدرالية.

واتجاه معظم دول العالم نحو لا مركزية الشرطة لا يقتصر على دول الغرب، بل يكاد يشمل جميع الأنظمة، حتى الاتحاد السوفيتى السابق بعد وفاة ستالين والتخلص من بريا قام بإخضاع قوات الشرطة لمجالس السوفييت المحلية.

أما نحن فى مصر فقد سبحنا عكس التيار وقمنا فى الستينات بإنشاء قوة مركزية يصل حجمها إلى حجم الجيوش فى الدول المتوسطة وتستمد المجندين من الفرز الخامس للقوات المسلحة.. أى من العناصر غير اللائقة طبيا أو نفسيا (باعتبار أن هناك اختبارات نفسية تتم قبل ائتمان الأفراد على الأسلحة) وبالرغم من أن معظمهم قادمين من الريف ومحملين بأمراضه المزمنة فإنهم يمارسون أشق التدريبات، ثم يكلفون بمهام تكاد تكون مصممة خصيصا لتوليد التوتر العصبى فهم كما وصفهم أحد المراسلين الأجانب بالقاهرة : " هؤلاء الصبية الريفيون التعساء.. يجلسون لمدة ١٢ ساعة معبأين فى اللوريات دون أى عمل أو يقفون أمام السفارات الأجنبية بملابسهم السوداء الثقيلة لمدة اثنتى عشرة ساعة فى

مقابل ما يعادل ثلاثة جنيهات انجليزية فى الشهر.. يحلمون باليوم الذى تنتهى فيه مهمتهم الثقيلة ويعودون إلى بلادهم ".

***

بعد هذا البحث الصغير، اقتنعت تماما بأن اللامركزية فى قوات الأمن هى أهم الضمانات الكفيلة بتحقيق الأمن والاستقرار والعدالة.. وإن كان لابد من قوة مركزية فلتكن قوة صغيرة مكونة على أسس سليمة وانتقاء مدروس.

الفصل السادس :

بنـــى قحـطـان

١ - الصداع الذى كاد يستعصى على الرأب
٢ - عملوها العراقيون
٣ - المصريون النازحون من الكويت
٤ - ياليته ظل يزرع النخيل!!
٥ - العراق ليس النملة التى وجدت فى طريق سليمان

(١)
الصدع الذى كاد يستعصى على الرأب

فى الأسبوع الأخير من شهر مارس عام ١٩٧٩ صحبت الدكتور بطرس غالى وزير الخارجية بالنيابة إلى اجتماعات مجلس جامعة الدول العربية بالكويت وهو آخر اجتماع شاركت فيه مصر قبل تعليق عضويتها بالجامعة _ ثم أعلن أن الرئيس الأمريكى كارتر وصل إلى القاهرة وأنه يقوم بجولات مكوكيه بين مصر وإسرائيل سعياً وراء التوصل إلى حل للمشكلات المتبقية فى مشروع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل.

فى اليوم الأخير لاجتماع مجلس الجامعة الذى انتهى بعد منتصف ليلة ٣١ مارس ١٩٧٩ طلب الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية مقابلة الدكتور بطرس غالى وتمت المقابلة فى جناحه بالفندق فى حوالى الساعة الثالثة فجراً.. وكانت مقابلة قصيرة وذات طابع رسمى جاف وغريب على العلاقات العربية.. سأل الأمير سعود هل ستوقعون ؟ وأجاب د. غالى إذا كان كارتر قد تغلب على الصعوبات فلا يوجد

عائق أمام التوقيع.. وسأل الوزير السعودى وهل نطمع أن تبلغونا قبل التوقيع ؟ وأجاب د.غالى بأنه لا يستطع أن يعد بذلك إلا أنه سينقل هذه الرغبة إلى الرئيس .. انتهت المقابلة والجميع يغامرهم شعور بأنها الأخيرة على هذا المستوى وإلى أن يمضى حين من الدهر لا يعلم إلا الله مداه.

لذلك فقد كان من دواعى سرورى ودهشتى عندما التقيت بالملك فهد بن عبد العزيز وقدمت له أوراق اعتمادى كأول سفير لمصر بعد استئناف العلاقات ، أن أشار الملك فهد إلى اتفاقية كامب ديفيد بقوله أنه واثق أن الطرف النادم على اتفاق كامب دافيد هو إسرائيل وأن مناحم بيجين قد قال ذلك من سنين ..

وعند تعينى سفيراً لدى المملكة العربية السعودية فى ديسمبر ١٩٨٧، كان قد مضى على قطع العلاقات بين البلدين قرابة التسع سنوات جرت فيها مياه كثيرة تحت الجسور وتقاذف فيها أعلام البلدين والمسئولون فيهما كلاماً سيئاً ومسيئاً ظل مذاقه فى الحلوق وصداه فى النفوس حتى حين وصولى كسفير لمصر بعد استئناف العلاقات يوم ٣١ ديسمبر ١٩٨٧ والسفير فى مثل هذه

الظروف يجد نفسه يرتطم كل حين " بكلاكيع" من مخلفات قطع العلاقات .. خاصة أن التغير فى السعودية بطئ جداً والوجوه التى عايشت فترة انقطاع العلاقات هى نفسها التى تستقبلك بعد استئنافها وكل لديه قصة وتجربة شخصية.

ولا أريد أن أبالغ فى دور السفير .. فهذا الدور قد انحسر كثيراً فى العصر الحديث نتيجة لثورة الاتصالات .. فوزراء الخارجية على اتصال شبه يومى عبر الهاتف وكذلك رؤساء الدول .. إلا أنه فى بداية استئناف العلاقات .. وحتى تدور عجلة الاتصالات ويتم إذابة الجليد وجرف مخلفات الماضى، فإن هناك فترة التليين الأولى وهذه على السفير أن يتحمل النصيب الأوفر منها.

وقد كان من أوائل هذه " الكلاكيع " .. موضوع الهيئة العربية للتصنيع .. فقد ظل الوزير السعودى المسئول عن هذا الموضوع يتحدث معى بمرارة وعلى مدى أربع ساعات عن المشروع وكيف كانت السعودية من أشد المتحمسين له وأنها أوفت بتعهداتها بالرغم مما تعرضت له من لطمات مثل قرار الرئيس السادات بعزل الأمير سلطان بن عبد العزيز عن رئاسة الهيئة واختيار لفظ تنحية الأمير سلطان _ ونشر ذلك

بالوقائع المصرية وكيف أن السعودية حولت نصيبها في رأس مال الهيئة وقدره ٢٥٠ مليون دولار بشيك سلمه هو شخصيا إلى السيد أشرف مروان بلا ضمانات ولا شروط وكذلك فعلت قطر والإمارات حتى بلغ رأس مال الهيئة ٦٥٠ مليون دولار وقامت الهيئة بإيداع المبلغ بالبنوك الأجنبية ولم يودع منه في السعودية سوى خمسة ملايين دولار ، وزيادة على ذلك فعندما اشترطت شركة «وست لاند» البريطانية تقديم تعهد بشراء الطائرات الهليوكوبتر التي ستنتجها الهيئة ودفع جزء من الثمن مقدماً، قدمت السعودية تعهداً بشراء ١٥ طائرة ودفعت ٥٠ مليون دولار مقدماً قبل أن يوضع حجر الأساس لهذه المصانع ، وأن السعودية لديها ضمان من البنوك المصرية بهذا المبلغ ولا زال الضمان سارياً وأنه يسوق هذه الواقعة لإثبات مسلك السعودية الذي لم يستجب للاستفزاز لأنه كان بإمكانها إرباك البنوك المصرية بهذا الضمان نظراً لأن كل ما أقامته شركة «ويست لاند» في مصر عبارة عن عنابر فارغة.. قد أجبته بأن السعودية بمساهمتها في إنشاء الهيئة العربية للتصنيع إنما أرادت أن تساهم ببعض الأموال التي أفاء الله عليها بها في المعركة الرئيسية للأمة العربية وتساعد مصر

التى ساهمت بالمال والرجال والعتاد وقدمت مئة ألف شهيد وانهكت اقتصادها واستنزفت مواردها ، وأن تجربة الهيئة لا يجب أن تؤخذ بمعزل عن الهزة الكبرى التى حدثت للعلاقات العربية العربية والغضب والانفعالات التى سيطرت على كل الأطراف .

أسوق هذه الواقعة كمثال فقط للأشياء التى كان يجب علينا إماطتها من طريق العلاقات .. إلا أن بعض هذه "المواجع" قد حفر فى النفوس وساهم فى صياغة سياسات جديدة غيرت مسار العلاقات المصرية السعودية إلى الأبد مثل قرار سحب العمالة المصرية من السعودية ..

فقد قال لى الملك فهد فى أول لقاء معه عند تقديم أوراق اعتمادى وهو اللقاء الذى دام لمدة ساعة ونصف أمضاها الملك فى استعراض شامل للعلاقات منذ عهد الرئيس عبد الناصر .. فقال : إننا فى السعودية لم نكن نعرف إلا مصر .. فمصر هى طب العرب وهى هندسة العرب وهى فن العرب وأدب العرب وسياحة العرب. المصريون لدينا عباقرة فى كل شئ.. أجمل الأصوات وأرقى الفنون وأرفع الآداب وأمهر الأطباء والمهندسين وخير المعلمين .. إلى أن قرر عبد الناصر

سحب العمالة المصرية ومن يومها قررنا تنويع مصادر العمالة وعدم الاعتماد على مصدر واحد ومع ذلك فلا زال لمصر نصيب الأسد ومركز الصدارة .. ليس في العمالة الوافدة فحسب ولكن في جمع المجالات حتى الاستثمار بالرغم من وجود تاريخ طويل من المعاناة ومن القوانين واللوائح التى تصدر ثم تلغى .. ثم أخذ الملك _ لدهشتى - يسرد .. فى إسهاب طويل _ تجربة شخصية له مع التعقيدات المصرية .. فقال : إنه شخصيا تعرض لتجربة غريبة ومستمرة حتى الآن (أى حتى عام ١٩٨٧) تتعلق بقطعة أرض اشتراها بالمعادى فى منتصف الستينات ثم قام أحد الجنود بوضع خيمة فى هذه الأرض وادعى ملكيتها بوضع اليد وبعد سنوات طويلة أمام المحاكم تم تأكيد ملكية الملك فهد بحكم ابتدائى واستئناف وقامت السفارة السعودية بتسجيلها بالشهر العقارى باسمه ، إلا أنه فوجئ بنفس الشخص يرفع نفس القضية أمام دائرة أخرى والغريب فى الأمرين المحكمة قبلت نظر الدعوى بالرغم من صدور حكم محكمة الاستئناف فيها ، ومنذ أيام أبلغته السفارة السعودية أن المحكمة حكمت لصالح الملك فهد إلا أن الحكم قابل للاستئناف، وأضاف الملك أن هذا

أمر لا مثيل له حتى أن هذه القضية ممكن أن تستمر إلى ما لا نهاية وهو يسوق هذه القضية كمثال لحرصه على مصر ورغبته فى تشجيع السعوديين على الاستثمار بها ولكن إذا كان الملك نفسه لا يستطيع أن يحافظ على ممتلكاته أمام أحد النصابين ولمدة ٢٢ عاما فكيف بعامة الناس، وضرب أمثلة أخرى على الشكاوى التى تصله من بعض السعوديين حول عدم قدرتهم على التصرف فى ممتلكاتهم فى مصر حتى دون تحويل العملة إلى الخارج ومثال ذلك أن أحد كبار الموظفين بوزارة المالية السعودية أراد أن يبيع فيلا يمتلكها بالقاهرة ويبنى عمارة لأولاده بالقاهرة أيضا وكان رد السلطات فى مصر بأن عليه أن يودع ثمن الفيلا بالبنك المركزى ويقوم البنك المركزى بتسليمه المبلغ على شكل دفعات شهرية لا تتجاوز الألفى جنيه .

وقال : إنه يقدر أن الرئيس مبارك قد ورث تركة مثقلة وتراكمات عشرات السنين وجهازا بيروقراطيا معوقا وتناقضات من رواسب النظام الاشتراكى الذى أصبح الاعتراف بفشله عالميا حتى فى الصين والاتحاد السوفييتى.

(٢)
عملوها العراقيون !!

يوم الخميس ٢ أغسطس ١٩٩٠ كنت بالقاهرة أشارك فى اجتماع الدورة التاسعة عشرة العادية لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامى وذلك بوصفي مندوب مصر الدائم لدى هذه المنظمة التى تتخذ من جدة مقراً مؤقتاً لها (إذ أن مقرها الدائم وفقا لميثاقها هو القدس بعد تحريرها).

أحدث خبر الغزو العراقى للكويت دوياً هائلاً .. تغيب جميع الوزراء العرب وانهمكوا فى اتصالات مع العواصم وفى اجتماعات جانبيه بين مجموعات منهم.. بينما دعت مصر لعقد اجتماع طارئ فى صباح الغد لمجلس جامعة الدول العربية وخلت قاعات مركز المؤتمرات من الوفود العربية التى عكفت على عقد اجتماعاتها بالفنادق، بينما الشيخ تسخيرى رئيس وفد إيران يسير مبتسماً فى أروقة المؤتمر ويقول لكل من يحادثه أما قلنا لكم .. هذا هو صدام الذى ناصرتموه ولسان حاله يقول " من أعان ظالماً سلطه الله عليه" ، ومنذ بدء المؤتمر ، كنا نشعر بأن هناك شيئاً قد طرأ على السياسة

الخارجية للعراق فالمندوبون العراقيون يشيرون لإيران منذ اليوم الأول بعبارة " الجارة إيران" كما أنهم اتصلوا بنا باعتبارنا الدولة المضيفة وطلبوا منا عدم طرح موضوع النزاع العراقى الإيرانى للمناقشة وأن هناك صياغة مشتركة يجرى الاتفاق عليها مع الوفد الإيرانى، لقد كانت العراق تهدأ الجبهة الإيرانية تمهيداً لغزو الكويت.

وقد كان من آثار الزلزال الذى داهم العالم العربى فى الثانى من أغسطس أن انفرط عقد دُوَله وأصبح لكل وجهة هو موليها.. وكان من نتائجه السريعة ظهور تجمع جديد غير رسمى يضم ثلاث دول هى مصر والسعودية وسوريا ، والتى عقدت أول اجتماع لها فى جدة يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠ على مستوى وزراء الخارجية واتفق على دورية الاجتماع بين هذه الدول الثلاث مرة كل شهر وذلك بالتناوب بين العواصم الثلاث .

وبعد إاانتهاءتهاء الاجتماع الأول توجهنا من قصر المؤتمرات فى جدة فى رتل من السيارات لمقابلة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز فى مقر إقامته بجدة .. ولدهشتى وجدت السيارات تتخذ طريقها إلى خارج جدة وفى

اتجـاه المدينة المنورة وسـألت مـدير المراسم بالخـارجـيـة السـعودية عن وجـهتنا فـقـال إن الملك يقـيم الآن فـى جـزيرة بالبحر الأحمر. بعد أن قطعنا حوالى ٦٠ كيلو مترا فى اتجاه الشمال انحرفنا غـرباً فى اتجاه البـحر وقطعنا حـوالى ٤٠ كيلو متـر ثم قطعنا مـسافـة قصـيرة فى طريق مـردوم داخل البـحـر Causeway إلى أن وصلنا إلى الجزيرة الصـغيـرة والقصر يتوسطها.

كان الملك فهد كعادته بشوشـاً ودوداً هادئاً باسماً إلا أنك تلحظ عليـه بعض الإرهاق وشيئا من الأسـى .. وكان كـعادته أيضا متدفقاً فى الحديث .. وبالطبع فقد بدأ يسرد كيف علم بالنبأ بعد منتصـف ليلة الثـانى من أغـسطس وبعد مـغـادرة الوفد العراقى لجدة بساعات قليلة حيث عقدت الجلسة الأولى والتى أصبحت الأولى والأخيرة للمحادثات الكويتية العراقية واتفق على استئنافها فى بغداد.

يقول الملك : إنه لم يصدق إطلاقاً وطلب السفير السعودى بالكويت الذى أكد النبأ وعندما لاحظ السفير أن الملك تساوره الشكوك .. قال : إنه يرى الدبابات العراقيـة الآن رأى العين . فطلب الملك فـهد أن يتـحدث إلـى صدام حسـين فقـيل له: إنه

موجود فى مكان ليس به تليفون وأنه سيطلبه عندما يتمكن من ذلك ، وهو أمر يصعب تصديقه أن يتواجد رئيس دولة فى مثل هذه الظروف فى مكان ليس به تليفون!!.

وفى الصباح اتصل صدام حسين فعلاً بالملك فهد وأبلغه أنه سيرسل إليه نائبه عزت إبراهيم لشرح الموقف لأن التليفون لا يصلح لمثل هذه الأمور .

وهنا قال الملك فهد " لقد استبشرت خيراً بكون المبعوث هو عزت إبراهيم .. فهو رجل طيب ومحترم .. على عكس (س) الذى أطلق عليه الملك وصف "مبعوث الشر" فهو لا يوفد فى مهمة خير أبداً .. وهنا شرع الملك فى حكاية حول (س) هذا عندما جاءه مرة فى إحدى الأزمات البترولية وانطلق فى خطبة عصماء وكأنه يخاطب الجماهير " بالرغم من أننا كنا فى صالون صغير مثل هذا .. لدرجة أننى قلت له بعد أن انتهى من خطابه ليتك أعلمتنى بعزمك على إلقاء خطاب .. فقد كنت أحضرت التليفزيون والإذاعة ومراسلى الصحف" !!.

عاد الملك فهد بعد ذلك إلى السياق الأصلى للحديث .. فذكر أنه استقبل عزت إبراهيم صباح يوم ٤ أغسطس .. " وكان الرجل كعهدى به مهذباً جم الأدب إلا أنه لم يزد على أن

قال : إن الرئيس صدام حسين يقرؤك السلام ويقول لك: إن الكويت هى جزء من العراق وقد عاد الجزء إلى الكل وليس هناك ما يدعو إلى القلق !! .. فقلت له " هذه هى كل رسالة الرئيس صدام .. هذا كل شئ .. ما عندك شئ آخر" قال أبداً ليس عندى شئ آخر .. فقلت له ولم تجشمت تعب الحضور .. يعني الأخ صدام كان بإمكانه أمس فى التليفون يبلغنى بهذه العبارة " ثم شكرته وودعته وانصرف.

بعد ذلك استرسل الملك فى سرد ماتلى ذلك من أحداث ومجهودات لاحتواء الأزمة من جانب ولمواجهة الأخطار التى تهدد السعودية من جانب آخر والتى بدأت تتأكد يوماً بعد يوم .. ثم استطرد يحكى عن علاقاته الطويلة بصدام الذى لم يشك فى نواياه أبداً بالرغم من أنه عندما يسترجع بعض أقواله الآن يجد أنها كانت تشى بما يدور فى فكره .. فمثلاً " أنا أعرفه منذ قرابة الـ ١٥ سنة .. منذ أن أوفدنى الملك فيصل رحمة الله عليه إلى الجزائر لكى أكون شاهداً على اتفاق سنة ١٩٧٥ بين العراق وإيران كطلب الطرفين وفى خلال هذه الخمسة عشرة سنة أتذكر الآن أن صدام حدثنى مرتين عن " الدويلات الصغيرة بالخليج" .. مرة قبل حربه مع إيران ومرة

أثناء هذه الحرب .. في المرة الأولى دعانا إلى غداء في تلك الجزيرة اللطيفة في نهر دجلة .. وبعد الفراغ من الطعام .. قال لي ما رأيك في هذه الدويلات الصغيرة بالخليج: إنها تشكل خطراً أمنياً على العالم العربي لأنها لا تملك مقومات الدفاع عن نفسها وهي مطمع لدول غربية .. فلم لا تضمونها إلى المملكة .. في الحقيقة أنا اعتبرت هذا القول من قبيل " الكلام الفارغ " ولم أعره اهتماماً .. ثم عاود الحديث نفسه مرة أخرى أثناء الحرب مع إيران وأيضا لم آخذه مأخذ الجد.. الآن أرى أنه كان يجس نبضي .. فلو أبديت اهتماماً لعرض عليّ القسمة يأخذ هو الكويت مثلاً ونأخذ نحن دولة أخرى .. في الحقيقة أذكر أنني قلت له : يا أخ صدام ليس المسألة بالكبر والصغر .. لأنه لو كان هذا هو المعيار لأصبح من حق الهند والصين أن تضمان معظم دول آسيا.

(٣)
المصريون النازحون من الكويت

تدفق آلاف من المصرين العاملين فى الكويت على الحدود السعودية قادمين من مسالك صحراوية وعبروا الحدود من منفذى الخافجى والرقعى وتجمعوا بمدينة حفر الباطن وكان لابد من اتخاذ إجراء عاجل لترحيلهم إلى مصر.. وتدبير أماكن إيواء بكل من حفر الباطن والرياض لحين الترحيل وقد تم بالفعل الاتفاق مع السلطات السعودية على فتح مدن الحجاج بالرياض وجدة للإيواء العاجل، كما حصلنا على موافقة القاهرة على قيام للطائرات العسكرية التى تنقل الجنود المصرين القادمين بإعادة المواطنين ومضاعفه عدد العبارات لحمل القادمين بالسيارات.

وقد توجهت إلى مدينة حفر الباطن حيث أنشأنا بعثة قنصلية مؤقتة هناك.. كما أوفدنا بعثة أخرى إلى مدينة الخافجى، وتزامن وصولى إلى حفر الباطن مع وصول طلائع القوات المصرية بقيادة اللواء بلال الذى حضر إلى مقر أقامتى هو وكبار معاونيه وانتقلنا جميعاً على الفور إلى المقر

المؤقت لبعثتنا القنصلية وذلك فى موكب ذو ضجيج، الأمر الذى رفع معنويات المصريين المكدسين بفناء الإمارة وما حولها وشرعنا على الفور فى إصدار وثائق السفر والمنحة النقدية ودام العمل طوال الليل حتى أمكن تجهيز حملة ١٦ أوتوبيسا ثم توجهنا إلى مدينة الملك خالد العسكرية فى السادسة صباحاً .. وما أن هبطت الطائرات العسكرية.. كل خمس دقائق طائرة واصطفت بالمطار حتى بدأنا فى تعبئتها بالمدنيين العائدين وسط مظاهر البشر والفرح بقرب العودة وإنهاء المعاناة..

استمرت هذه العملية عدة أيام .. وأبلغنى اللواء بلال أن غداً الأحد ١٩ أغسطس سيصل آخر فوج من القوات..كان لدينا ١٤ طائرة ستقلع غداً لآخر مرة .. كل طائرة تسع تسعين فرداً .. والحمد لله بنهاية اليوم غادرت آخر طائرة عسكرية القاعدة وعليها جميع المواطنين الذين كانوا بحفر الباطن حتى مساء السبت ١٨ أغسطس.

عدت إلى الفندق فى وقت متأخر .. وقبل أن آوى إلى الفراش دق جرس الباب.. فوجدت شخصا عربيا يرتدى الثوب والعقال ومعه طفل صغير ممسك بيده وقال أنا كويتى

متزوج من مصرية وسمعت أن هناك طائرات مصرية .. ساورنى بعض القلق من كثرة التحذيرات الأمنية التى توجهها لنا الجهات المختصة بمصر.. سحبت الباب واغلقته خلفى وتأكدت أن المفتاح معى وتقدمت إلى الصالة المضيئة وأنا أحادثه ، وما أن استدار حتى اكتشفت أنه أعمى .. آه الآن فهمت سبب الطفل الصغير خجلت من نفسي وتحركت لدى كل عقد الذنب.. تذكرت الآية الكريمة ((عبس وتولى. أن جاءه الأعمى)) لماذا لم أدعوه للدخول .. لدى جناح به صالون مجهز وثلاجة مليئة .. تباً لها تعليمات الأمن .. على العموم تحركت عقدة الذنب لصالح الكويتى الأعمى .. فقد صممت على مساعدته بكل ما أملك من وسائل .. وفى مساء اليوم التالى سعدت بقراءة التقرير اليومى حيث تضمنت الكشوف اسم الكويتى الأعمى وجميع أفراد أسرته.

اتصلت بالفريق أول يوسف صبرى أبو طالب وزير الدفاع واتفقنا على استمرار النقل بالطائرات ولكن ليس بالكثافة التى كان عليها أثناء نقل الجنود على أن يقتصر النقل الجوى على الحالات الخاصة مثل المرضى والنساء والأطفال وكبار السن ، كما اتفقت مع الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير

الدفاع السعودى على قيام الطيران السعودى المدنى بالنقل من الرياض مجاناً.

وفى الطائرة التى أقلتنى إلى الرياض _ وجدت على المقعد المجاور لى السفير سليمان الماجد الشاهين وكيل وزارة الخارجية الكويتية .. وقد قص على ما حدث له فقال : إنه يوم أول أغسطس كان فى جده ضمن وفد المفاوضات الكويتى وبعد إنهاء الجلسات سافر رئيسى الوفدين الكويتى والعراقى وبقى هو وسعدون حمادى نائب رئيسا الوزراء العراقى لصياغة البيان وقد عرض عليه سعدون حمادى صياغة تقول إن المشاورات التى دارت بين كل من الرئيس حسنى مبارك والملك فهد والرئيس صدام حسين قد أسفرت عن الاتفاق على عقد الجولة الثانية من المفاوضات فى بغداد.. وعندما طلب الشاهين الإشارة إلى الأمير جابر أمير الكويت كطرف فى هذه المشاورات رفض سعدون حمادى وهكذا انهارت المفاوضات وعاد الشاهين إلى الكويت فى حوالى الساعة العاشرة وتوجه مباشرة إلى مقر وزارة الخارجية لإعداد التقرير .. وفى حوالى الساعة الواحدة بعد نصف الليل اتصل به الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية وقال لى : عملوها

العراقيون وأبلغه أنه سيرحل الآن مع أمير البلاد لأنهم مستهدفون.

أضاف الشاهين أنه أمضى الليل بطوله فى حرق الأوراق السرية وظل فى مقر الوزارة حتى هبطت عليهم الطائرات العمودية العراقية واقتحم الجنود المبنى وجمعوهم بطريقة مهينة قائلين لهم يا لصوص النفط إلا أنهم لم يعتقلوهم بل طردوهم من المبنى حيث لجأ معظمهم إلى السفارات الأجنبية واتجه هو إلى السفارة المصرية وظل مختبئا بها حتى دبرت له السفارة طريقة للهروب إلى السعودية.

(٤)
يا ليته ظل يزرع النخيل !!

مرة أخرى وجدت نفسى في بغداد فى الأسبوع الأخير من شهر أبريل عام ١٩٨٨ ممثلاً لمصر فى اجتماعات اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (الإسكوا) .. والأسبوع الأخير من ابريل هو أسبوع " المولد " .. مولد صدام حسين وفيه تزدان بغداد بالأعلام واللافتات وصور الزعيم القائد وبعض هذه الصور يبلغ ارتفاعها ارتفاع العمارات .. وتظل الصحف تزخر بالمقالات والاشعار والتحليلات حتى تصل إلى الليلة الكبيرة ولعلها ليلة ٢٨ ابريل على ما أذكر .. وهنا تصدر الصحف وبها برامج مقترحه لاحتفال الأسر العراقية بهذا اليوم .. وفيه أن يجتمعوا فى صلاة المغرب ويؤدون الصلاة ثم يتوجهون إلى الله عز وجل بالدعاء لصدام حسين بأدعية معينة .. كما اقترحت إحدى الصحف ذات مرة على ربة البيت العراقى بأن " تحنى" أيد وأقدام بناتها أى تصبغها بالحناء احتفالا بهذه المناسبة .. ويضحك أحد الزملاء قائلا ويا ويل التلميذة التى تحضر إلى المدرسة ويدها خالية من الحناء !!.

في المساء دعينا _ نحن أعضاء الوفود المشاركة في الاجتماعات لحضور حفل عشاء تخلله عرض أزياء بمناسبة عيد الميلاد .. وقام طارق عزيز بقطع " التورته" العملاقة التى صنعت لهذه المناسبة ، وبالمناسبة فقد قيل لى إن أسعار البيض واللبن والدقيق تشتعل فى أسبوع عيد الميلاد لأن كل بيت عليه أن يصنع كعكة عيد الميلاد وكثير منهم يضعونها أمام أبواب المنازل لكى يأكل منها القاصى والدانى وعابر السبيل ولكى يعلم الجميع وخاصة " المختصون " بأن الأسرة تحيي هذه الليلة . بعد أن قطع السيد طارق عزيز الكعكة .. بدأ طابور عارضات الأزياء يمر على أنغام الموسيقى وتتقدمه عارضه ترتدى " فستاناً " مطبوع عليه صورة عملاقة للرئيس صدام حسين !! وعندما عدنا للفندق فى المساء وجدنا حراس الأمن يعتصمون بساعات يد جديدة مطبوع على مينائها صور لصدام حسين !!

وقد قال لى أحد كبار رجال السياسة والاعلام فى مصر أنه تزامن وجوده فى بغداد مرة مع عيد ميلاد صدام حسين .. فطلبت منه وزارة الإعلام المساهمة بكلمة فى هذه المناسبة فطلب موفاته ببيانات عن صدام ونشأته وما إلى ذلك وقد استرعى انتباهه فى هذه المطبوعات أن صدام حسين نشأ

فى بيئة قاسية وأنه لم يدخل المدرسة حتى جاوز السنوات العشر وأنه ظل يلح على زوج أمه أن يسمح له بدخول المدرسة فنهره وقال له ستظل تزرع النخل معى كما فعل أباؤك وأجدادك .. إلا أن صدام كان شديد المراس منذ طفولته فصمم على الهرب إلى سوريا لكى يتعلم هناك ووضع خطة للهرب والتسلل من منطقة أحراش تعج بالذئاب فأخذ يقتصد من مصروفه لتكوين المال اللازم لهذه المغامرة.. وكان أول شئ اشتراه من هذا المال هو مسدس وطلقات وسكينا للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة.

ولاشك أن لهذه القصة دلالات كثيرة .. ونوافذ إلى شخصية الرئيس صدام حسين.. فالتصميم والعناد والتمرد على السلطة .. ثم دور السلاح وأهميته التى تأتى قبل الطعام .. ثم اقتحام المخاطر والمغامرة بالمجهول .. كل هذه العناصر شاهدناها تلعب أدوراً حية فى سياسات صدام حسين ومغامراته .

ثم يضحك محدثى ويقول : والله لا أدرى هل كان من مصلحة العرب لو ظل صدام حسين يزرع النخيل مع والده فى تكريت .. ولو فعل لتغير وجه التاريخ.

(٥)

العراق ليس النملة التى وجدت فـى طـريق سـليمان والعرب لم يوجدوا فى هذه المعركة مـن باب المصـادفة التاريخـية

تحدث الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى إحدى القنوات التليفزيونية الخاصة مساء الجمعة ٤ أكتوبر ٢٠٠٢ حديثا مطولاً نشر بعد ذلك فى إحدى الصحف باسم حديث ما قبل العاصفة . قال فيه : "إن المعركة الدائرة حاليا لا تستهدف العراق ولا الأمة العربية وإننا موجودون فى هذه المعركة من باب المصادفة التاريخية .. أما الهدف الحقيقى فهو عملية ترويض وحوش دولية قادمة مثل الصين وروسيا وألمانيا؟! "

أى أن أمريكا التى تريد أن تثبت أنها " فتوة " العالم الوحيدة .. كانت تبحث عن صبى صغير لكى تمثل به فى " الحارة " لتخيف " فتوات" محتملين فوجدت العراق أمامها جاهزاً وهدفاً مشروعاً " يمكن تبريره لشعبها وحلفائها.

ولكن ذلك فى رأيى أبعد ما يكون عن الحقيقة .. فلو كانت أمريكا تبحث عن أى " قطة " لتذبحها إرهاباً للصين وروسيا والمانيا لكان أمامها خيارات أفضل بكثير من العراق وأقل كلفة فهناك زيمبابوى مثلاً التى قام رئيسها موجابى بالإخلال بالتوازن الدقيق الذى سلمت بموجبه الأقلية البيضاء السلطة إلى الأغلبية السوداء.. وهو عدم المساس بالمزايا الاقتصادية للسكان البيض .. وقد قام موجابى بمصادرة الأراضى الشاسعة للبيض وحرض جميعه المحاربين القدماء (جنود حركة التحرير السابقين) بالاستيلاء على مزارع البيض التى اقتحموها عنوة فى عنف سقط فيه عدد من البيض قتلى ولازال الصراع مستمراً فى ساحات العنف وفى ساحات القضاء .. وخطورة هذا التمرد الزيمباوى أن عداوه قد تصل إلى جنوب أفريقيا التى كان من أهم عناصر الصفقة التى تسلم بموجبها السود الحكم هو نزع السلاح النووى حيث قامت الأقلية البيضاء بتحطيم مفاعل بليندابا النووى وكان أول أعمال حكومة الاغلبية السوداء هو تبنى مبادرة لجعل أفريقيا منطقة خالية من الأسلحة النووية ووقعت بالفعل هذه المعاهدة وحملت اسم معاهدة بليندابا .

بل إننى أقــول : إن كــاســتــرو الذى مــازال يرفع علم الشيوعية الأحمر فى مواجهة الساحل الأمريكى وعلى بعد ٧٠ مـيـلا من شـواطى فلوريدا حـيث يحكم جب بوش (شـقـيق الرئيس الأمـريكى الحالى) وحـيث يوجد اللوبى الكوبى القوى .. كاسترو هذا الذى تحدى أمريكا فى عقر دارها ولم ينقذه منها إلا توازن الرعب النووى أيام الحرب الباردة .. كان هدفاً شهياً بدرجة أكبر من صدام حسين لو صح تحليل الأستاذ هيكل من أننا لسنا الهدف ولكننا وجدنا داخل هذه الأزمة من باب المصادفة التاريخية..

وأستطيع أن استرسل فـأقـول : هناك شـافـيـز مـسـاح الأحـذية الذى وصل إلى سـدة الرئاسـة فى فنزويلا.. وشق عصا الطاعة على الولايات المتحدة .. وكـان أول عمل قام به هو زيارة كـاسـترو ثم صدام حـسين ثم أخـذ يشـاغب داخل الأوبك حـتـى دبرت أمريكا انقلابا ضده وسارعت بالاعـتراف بالحكم الجديد الذى لم يدم إلا لستة أيام عاد بعدها شـافيز للحكم بعد أن أفشل انصاره الانقلاب وأمريكا تعلم أنه أصبح أكثر مرارة تجاهها.

لا .. العراق ليس صدفة تاريخية .. العراق مستـهدف لأنه العراق ولأنه الخطوة الأولى اللازمة لإعادة ترتيب الأوضاع فى

الشرق الأوسط .. ولأنه يجلس على مخزون بترولى وفير جداً وسهل الاستخراج وعالى الجودة وقليل الكلفة ويمكن تصديره بسهولة عن طريق البحر المتوسط .. ويقلل من اعتماد الغرب على السعودية والخليج لأن أمريكا لا تطمئن إطلاقاً إلى السعودية .. نعم تطمئن إلى آل سعود ولكن مراكز أبحاثها وقلاع الفكر بها لا تطمئن إلى ما يخبئه المستقبل .. إن أمريكا تعلم علم اليقين أن الشارع العربى يحمل لسياستها نفوراً أشد مما تعبر عنه الأنظمة العربية .. ولقد تساءل أحد كبار المحللين الأمريكان عن السبب الذى يدعو الولايات المتحدة إلى الضغط من أجل الديمقراطية فى العالم العربى .. فالديمقراطية إذا كانت تعنى تمثيل الرغبات الحقيقية للشعوب فستأتى بحكومات شديدة الكراهية لسياسة الولايات المتحدة .. وأمريكا تعلم أن الأئمة يدعون عليها فى مساجد السعودية ودول الخليج بأن " يرينا الله فيهم عجائب قدرته" .

وأمريكا تعلم أن ما تسميه الأصولية الإسلامية إنما يتغذى على فكر ابن تيميه الذى أنبت محمد بن عبد الوهاب فى السعودية وأبو الأعلى المودودى فى باكستان وسيد قطب مصر .. لذلك فإن السيطرة المباشرة على بترول العراق خاصة فى المناطق الشمالية حيث الأكراد والتركمان وإقامة

ما يشبه الكيان المستقل وإخراج هذا البترول عن النطاق العربى مع مراعاة حساسيات تركيا تجاه الاكراد سيمكنها من أن تتناول موضوع السعودية من مقعد مريح .. وقد تذهب أطماعها وأحلامها إلى أن تعمل الشئ نفسه فى الجزيرة العربية .. حيث البترول أيضا يقبع فى منطقة الحسا أو المنطقة الشرقية ذات التواجد الشيعى القوى .. قد يقول قائل إن البترول ليس هو القضية، فالعرب ليس أمامهم إلا أن يبيعونه للغرب .. نعم ..حقاً .. ولكن التحكم فى الأسعار وكميات الإنتاج واستقرار الإمدادات هى أهداف وأحلام وتطلعات الصناعة الأمريكية والأوروبية .

والخطوة التى ستلى العراق مباشرة ليست السعودية والخليج ولكنها سوريا وجنوب لبنان وحزب الله .. وهذه ستكون المرحلة التالية فيما تسميه الولايات المتحدة الحرب ضد الإرهاب حيث ستطالب بتصفية حزب الله والمجموعات الفلسطينية الموجودة فى سوريا وإلا تولت هى المهمة بنفسها.

عندئذ تستطيع أمريكا أن تستدير للمنابع التى تعتقد أنها تفرز التشدد الإسلامى وفى خضم ذلك تتولى إسرائيل ترتيب الأوضاع فى فلسطين وفقا لمخطط شارون وغلاة الصهاينة .

صراع الحضارات ليس أكذوبة

فالعراق ليس صدفة .. وصراع الحضارات ليس أكذوبة .. بل أصبح حقيقة واقعة .. وأذكر الآن أنه مع اقتراب عام ٢٠٠٠ من نهايته عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتماعاً سمى " الجمعية الألفية" .. وقد بدأ هذا الاجتماع بسؤال وجهه الأمين العام لمندوبى الدول حيث تساءل قائلا :

هل نحن فى حاجة إلى عدو ؟ هل لابد من وجود عدو حتى يتمكن الحكام من حكم مجتمعاتهم ؟ أما آن الأوان إلى أن تتضافر الجهود لمواجهة العدو المشترك وهو عدم التسامح؟

وكان أول من أجاب على الأمين العام هم ممثلو العالم الإسلامي عندما قالوا نعم نستطيع ولكن علينا قبول الاختلاف وعدم محاولة فرض ثقافة واحدة على العالم.

ويبدو أن فكرة إيجاد عدو لازالت تستخدم كأحد الأدوات السياسية في العالم فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي تساءلت السيدة مارجريت تاتشر عما إذا كان هناك مبرر لاستمرار حلف الأطلنطى ثم أجابت عن نفسها " بنعم عالية وواضحة"

Loud & clear لأن هناك أخطارا ستهدد أوروبا فى المستقبل من خارج القارة وأشارت إلى منطقة الشرق الأوسط بالذات .. أما السيد / ويلى كلاس سكرتير عام حلف الأطلنطى فى ذلك الوقت فقد كان أكثر وضوحاً عندما قال :

" إن الإسلام المتشدد يمثل تهديداً استراتيجياً مهما لا يقل عن الخطر السوفييتى فى زمن الشيوعية" .

ولا شك فى أن مثل هذه التوجهات تفتح جروحاً قديمة تعود إلى ما يقرب من الألف عام عرفت فيه العلاقات بين الغرب والمسلمين صراعاً عنيفا امتد قرونا طويلة بدءاً بالحروب الصليبية وسقوط الأندلس ووصولاً إلى الاستعمار الأوروبى وأخيراً زرع الكيان الصهيونى فى ربوع العالم العربي مما أوجد حاجزاً نفسياً يجب العمل على إزالته وليس تأجيجه من خلال التهجم على الإسلام وحضارته وتشويه صورته ، وبالرغم من روح التسامح التى تتسم بها نظرة الغرب لمختلف الحضارات والثقافات إلا أن النظرة إلى الإسلام بقيت سلبية ولم تتغير كثيراً عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، بل يمكن القول أن الهجوم على قيمه

وحضارته إزداد شراسه وبشكل مخيف ووصل فى بعض الأحيان إلى درجة الهوس ، وذلك بالرغم من أن المسلمين هم أكثر الجماعات تعايشاً مع الأخرين .. فإن قرابة ثلث مسلمى العالم يعيشون كأقليات فى دول غير إسلامية كما أنه لا تكاد تخلو دول إسلامية من وجود أقلية غير مسلمة بها ، ويقول الفقيه الدستورى العربى المسيحى الدكتور إدمون رباط:

" إن الإسلام وضع فى معاملة من يعيشون فى مجتمعه تلك القاعدة العادلة " لهم مالنا وعليهم ما علينا " ، وبذلك انطلقت لأول مرة فى التاريخ دولة هى دينية فى مبدئها وفى هدفها إلى الإقرار بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وأنماط حياتها ، وكان انتهاج هذه السياسة الإنسانية والليبرالية فى زمن كان المبدأ السائد فيه يقضى باكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم".

إننى أختلف مع الأستاذ هيكل فى استبعاد عنصر الصراع بين الحضارات وفى أننا " نردد مقولة صراع الحضارات دون وعى لأن الصراع القائم ما هو إلا صراع قوى .. " .. اختلف معه لأن صراع القوى لا بد له من غطاء

.. فالقوى التى ترغب فى الهيمنة لا تقول : إنها تريد مالك وأرضك وبترولك ولكنها تقول إنها تريد أن تقضى على الشرور والأخطار التى تهدد الإنسانية لذلك فلابد من خلق العدو ومهاجمة أفكاره ومعتقداته وأسلوب حياته وتنفير الناس منه حتى يصبح الفتك به أمراً مستحباً وضرورة لضمان استمرار الحياة الكريمة".

استمرار النظام فى العراق
بعد هزيمته فى الكويت

يقول الأستاذ هيكل إن استمرار النظام فى العراق بعد هزيمته فى الكويت كان عكس ما تصورته إدارة الرئيس بوش الأب حيث كان التصور الأمريكى يقوم على أن نهاية النظام قادمة قادمة ولكن ليس ضروريا أن تتم بيد أمريكا .وهذا ابعد ما يكون عن الحقيقة .. ويكفى أن نذكر أن أمريكا سمحت للجيش العراقي وللحرس الجمهورى بالذات أن ينسحب من الكويت بكامل أسلحته بالرغم من أنه كان فى إمكانها تدميره بالكامل أو على الأقل تدمير أسلحته إن أرادت تتجنب مغبة الخسائر البشرية الفادحة في صفوف الجيش العراقى الذى سمحت له أن يمر من الكويت حتى بغداد بين صفوف قواتها التى كانت فى جنوب العراق فى ذلك الوقت.. صحيح أن أمريكا اشلعت أو على الأقل رحبت بالانتفاضة الشيعية فى الجنوب ولكن ليس للقضاء على صدام حسين ولكن على أمل إقامة كيان شيعى فى الجنوب خارج سيطرة

بغداد على غرار الكيان الكردى فى الشمال.. إذن فالمخطط الأمريكى الأصلى كان يقضى باستمرار صدام حسين فى بغداد لاستمرار إشاعة جو من التوتر والخوف فى دول الخليج والسعودية يبرر استمرار وجودها العسكرى الكثيف ، وييسر صفقات بيع الأسلحة بالمليارات ويذكر الجميع بأن أمنهم الحقيقى لا يتحقق بنظام دفاعى عربى أو خليجى مشترك وإنما بالاعتماد على القوة الوحيدة التى يمكنها توفير الحماية لهم .. كما أن استمرار مثل هذا النظام فى بغداد هو الذى مكن الولايات المتحدة من استصدار قرارات العقوبات الاقتصادية والعسكرية وإقامة نظام التفتيش الدولى لتحطيم قدرات العراق العسكرية فضلا عن التعويضات الباهضة التى فرضت على العراق وقرار النفط مقابل الغذاء الذى مكن الولايات المتحدة من التحكم فى كل مجريات الأمور فى العراق حتى أقلام الرصاص لتلاميذ المدارس كانت تتطلب الحصول على موافقة لجنة العقوبات التى لأمريكا حق الفيتو فيها .. فلو قامت فى العراق حكومة صديقة تصالحت مع الكويت ومع الدول العربية لما تمكنت الولايات المتحدة من

تدمير قدرات العراق الصناعية والعلمية كما فعلت خلال السنوات العشر الماضية من خلال لجان التفتيش على الأسلحة.

والآن وبعد أن تحققت أهداف المرحلة الأولى فلم يعد استمرار النظام فى العراق مفيداً خاصة وقد أصبحت الظروف الدولية مواتية لإعادة ترتيب الشرق الأوسط بأكمله .

١١ سبتمبر و ٩ نوفمبر

يقول الأستاذ هيكل أنه لا يقبل بمقوله " أن هناك يوماً حاسماً أو فاصلاً فى التاريخ بالمعنى الحقيقى للكلمة .. ولا حتى بعثة الرسول محمد أو المسيح عليهما الصلاة والسلام .. واعتقد أن هذه كانت زلة لسان غير مقصودة حيث أنه يستمر فيقول " واليوم الوحيد الذى يمكن أن نطلق عليه مثل هذا الوصف تجاوزاً هو يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ .. يوم سقوط جدار برلين الذى أعلن بشكل واضح عن انهيار الإمبراطورية السوفيتية ..

وأنا لا أقلل من أهمية سقوط جدار برلين كرمز لسقوط الإمبراطورية السوفيتية ولكننى أتساءل من الذى سيذكر الاتحاد السوفيتى بعد الف سنة من الآن .. الاتحاد السوفيتى الذى لفظ آخر أنفاسه بعد عمر لا يتجاوز الـ ٧٤ عاماً متبرئاً من النظرية التى قام عليها مقطع الأوصال مفلساً جائعاً .. هل يعتبر سقوطه هو اليوم الوحيد الحاسم فى التاريخ .. ولا يعتبر بعثة محمد عليه الصلاة والسلام يوماً حاسماً التى مر عليها ١٥٠٠ سنة أو ميلاد المسيح الذى مر عليه ٢٠٠٠ سنة

إننا نذكر سقوط الاتحاد السوفييتى الآن لأنه كان سقوطاً رهيباً مفزعاً فى سرعته ولكن من الذى سيذكر هذا اليوم بعد قرن واحد وليس بعد عشرة قرون ..

وأخيراً فإن كان ٩ نوفمبر قد هدم الجدار بين الشيوعية والرأسمالية فإن الولايات المتحدة قد أقامت بعد ١١ سبتمبر جدراً فاصلاً وطالبت الجميع بأن يحددوا مواقعهم إما معها خلف الجدار وإما مع أعدائها على الجانب الآخر .

مصر والاستفادة من الحروب

ولعل أشد من يثير الدهشة قول السيد هيكل أن مصر استفادت من الحروب وأنه لا يوجد بلد تلقى قدراً من المساعدات كما تلقينا نحن خصوصا بعد عام ١٩٧٣ ويقدر ذلك ما بين ١٨ و ٢٠ مليار دولار ويؤكد سيادته أن الحروب كانت سبباً لدعم مصر وليس العكس .

وبالرغم من أنني أشك كثيراً في رقم العشرين مليار دولار هذا فقد كنت سفيراً لمصر بالسعودية عندما استؤنفت العلاقات وكان التعاون الاقتصادي من أوائل الملفات العالقة حيث كان الأمر يتطلب تسوية المشاكل السابقة لإتاحة المجال لاستئناف التعاون من جديد .. وأذكر أن السعودية ودول الخليج قررت إنشاء هيئة باسم هيئة الخليج للتنمية في مصر برأس مال مقداره ٢ مليار دولار وقد قامت مصر بسحب مبلغ ١,٥ مليار كما اقترضت مبلغ ٢٥٠ مليون دولار من بنك تشيس منهاتن بضمان رأس مال الهيئة ثم حدثت القطعية العربية فجمدت دول الخليج ما تبقى من أموال الهيئة هومبلغ

٢٥٠ مليون دولار .. كما قامت السعودية بعد حرب ١٩٧٣ بإيداع ٢ مليار دولار بالبنك المركزى باسمها أى باسم حكومة المملكة العربية السعودية وذلك دعماً لاحتياطى البنك من العملة الصعبة .. فضلا عن قيام مصر والسعودية ودول الخليج مشتركين بانشاء الهيئة العربية للتصنيع والتى عانت أشد المعاناة من الخلافات العربية وكانت مسرحاً للصراع استفادت منه الشركات الأجنبية خاصة شركة «وست لاند» البريطانية لصناعة الطائرات التى كانت الهيئة قد وقعت عقوداً معها ولم تستطع تنفيذها نتيجة للمقاطعة العربية.

ولكنه حتى بافتراض صحة مبلغ الـ ١٨ أو الـ ٢٠ مليار دولار فهو مبلغ يعد فى غاية الضآلة إذا ما قورن بتدفقات رؤوس الأموال على دول الأسيان مثلاً والتى تقاس بمئات البلايين من الدولارات.

لقد تحملت مصر فى حروبها مع إسرائيل ما لم تتحمله دولة أخرى من دول الشرق الأوسط .. لقد أوقفت برامج التنمية بعد حرب ١٩٦٧ تماماً وشطبت من الميزانية كلمة الصيانة حتى انهارت المرافق الأساسية مثل التليفونات والسكك الحديدية والطرق.

ولن أنسى منظر سكرتير السفير الأمريكى الذى كان يحضر من مكتبه فى جاردن ستى إلى وزارة الخارجية بالتحرير على بعد خطوات لكى يحدد موعداً لسفيره مع الوزير وذلك لصعوبة إتمام ذلك بالتليفون .. ولقد كان مقررا ازدواج طريق الصعيد وقد كان الشريان الوحيد الذى يربط شمال مصر بجنوبها _ فى الخطة الخمسية ٦٠ _ ١٩٦٥ ، ثم الغى ذلك نتيجة لحرب اليمن وحرب ١٩٦٧ بعد ذلك .. إن تعبئة مليون جندى لمدة سبع سنوات لهو أمر تنوء به ميزانيات الدول المتقدمة وليس دول فقيرة مثل مصر .. ولا ننسى فقدان الموارد بسبب الحروب مثل قناة السويس التى كانت تدر حوالى ٢ مليار دولار سنويا وظلت مغلقة قرابة السنوات التسع .. أى أننا فقدنا سبب إغلاق القناة ١٤ مليار دولار.. دعك من تأثر السياحة والصناعة بسبب صعوبات الاستيراد فكيف بالله عليكم نقول : إن مصر استفادت ماليا من حروبها مع إسرائيل .

الفصل السابع :

أندونيسيا والوحدة من خلال التنوع

١ – الإسلام والبانشاسيلا
٢ – باهاسا إندونيسيا
٣ – فضيلة الشيخ السفير
٤ – قد تساوينا جميعا حين قمنا للصلاة

(٢)

الإسلام والبانشا سيلا

عدت من السعودية فى أواخر عام ١٩٩١ بعد أن أمضيت بالرياض أربع سنوات .. كما تقضى القاعدة الدبلوماسية غير المكتوبة .. وبالرغم من أنها قاعدة غير مكتوبة إلا أنها من أكثر القواعد الإدارية احتراماً بوزارة الخارجية . وعلى أثر عودتى توليت منصب مندوب مصر الدائم لدى الجامعة العربية إلى أن حل موعد الرحيل مرة أخرى وأخيرة وذلك إلى أندونيسيا استجابة للمطلب الوحيد الذى رجوته وهو أن تكون الخدمة فى دولة إسلامية حتى أتجنب تقديم الخمور فى الحفلات الدبلوماسية .. وقد سعدت بها كثيراً وكان من أوائل الشخصيات التى التقيت بها فى جاكرتا السيد فؤاد فخر الدين وهو من المثقفين الأندونيسيين الذين يجيدون اللغة العربية حتى أنه يتمتع بعضوية منتسبة إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكان فى ذلك الوقت مشغولاً بترجمة بعض إصدارات الأزهر إلى اللغة الاندونيسية .. قال لى الصديق فخر الدين : إن الأندونيسيين صدموا عندما افتتحت

السفارات العربية فى جاكرتا لأول مرة .. فقد تدفقوا عليها يستفتونهم في أمور دينهم ظنا منهم ان أى عربى هو فقيه فى الإسلام .. وشيئاً فشيئاً تبين لهم فى ترددهم على هذه السفارات وحفلاتها .. أنها لا تختلف كثيراً عن السفارات الغربية.

والإسلام فى إندونيسيا قوة سياسية لا يمكن تجاهلها وهناك تنظيمات إسلامية لا نظير لها من حيث الحجم والنفوذ الشعبى والأنشطة التى تمارسها .. فجمعية نهضة العلماء التى كان يرأسها عبد الرحمن واحد الذى تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد يبلغ عدد أعضائها ما يقارب الأربعين مليوناً وتليها جمعية المحمدية التى يتجاوز أعضاؤها خمسة وعشرون مليون عضو .. ولهذه الجمعيات محطات إذاعة وبرامج تعليمية بل وجامعات بها كليات للطب .. بالطبع كانت حركتها محكومة فى عهود سوكارنو وسوهارتو فمثلاً كانت الإذاعات التابعة لهذه الجمعيات تلتزم ببث نشرات الأخبار التى تبثها الإذاعة الرسمية . إلا أنه عندما انتهى الحكم الديكتاتورى كان لهذه الجمعيات من التنظيم ومن الأتباع ومن الشبكات المنتشرة فى جميع أرجاء البلاد ومن التمويل ما

مكنها من التحول إلى أحزاب سياسية أصبحت تسيطر على البرلمان الإندونيسى فى الوقت الراهن.

***

والإسلام فى إندونيسيا معتدل بوجه عام .. والتطرف العنيف مستجلب من الخارج والغلو فى الدين يكاد ينحصر فى منطقة آتشية بالطرف الشمالى لجزيرة سومطرة وهى المنطقة التى يطلق عليها اسم " شرفة مكة " ، وقد امتزج ذلك الغلو فى الدين بحركة انفصالية قوية فى الإقليم لازالت تخوض صراعاً مع الحكومة .. وهو صراع يأخذ شكل العنف والقتال فى بعض الأحيان .

وقد وصل الإسلام إلى إندونيسيا عى طريق التجار ومن الغريب أن يتزامن انتشاره مع بدء الاستعمار الهولندى وفى ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه (عالم الإسلام): «إن اهتمامات الهولنديين كانت تجارية ، فتركوا الإسلام ينتشر على مهل ، بل إن الحكومة الهولندية شجعت المسلمين على الانشغال بالأمور الدينية تاركين التجارة والمال للهولنديين» ، ولكن الوحدة الدينية هى التى حفظت وحدة البلاد من أن يقسمها المستعمرون إلى أقسام بحسب الدين

فظلت كتلة السكان واحدة محتفظة بقواها ، ولعل فى تيمور الشرقية مثالاً صارخاً لما كان يمكن أن يحدث لإندونيسيا لولا وحدتها الدينية .. فجزيرة تيمور هى جزيرة واحدة تقع فى أقصى الشرق من إندونيسيا بالقرب من الشواطئ الأسترالية .. وقد اقتسمها الاستعمار الهولندى والبرتغالى .. فسيطر الهولنديون على الجزء الغربى من الجزيرة وسمى تيمور الغربية وسيطر البرتغاليون على الجزء الشرقى وأطلقوا عليه اسم تيمور الشرقية.. واتبع البرتغاليون سياسة مخالفة للسياسة الهولندية فقد قاموا بنشر الكاثوليكية بين السكان .. كما تزاوجوا منهم وفقاً لسياسة الاستعمار البرتغالى المعروفة بالـ ASSIMILADO أى الاندماج .. وعندما استقلت إندونيسيا ضمت جميع الأراضى التى كانت خاضعة للاستعمار الهولندى وبقى الجزء الشرقى من جزيرة تيمور (تيمور الشرقية) تحت السيطرة البرتغالية إلى أن حدث الانقلاب الشيوعى فى البرتغال عام ١٩٧٥ وتخلت البرتغال عن مستعمراتها بطريقة عشوائية فجائية غير منظمة وانسحبت من تيمور الشرقية فدخلتها القوات الإندونيسية بسهولة وتم ضمها إلى إندونيسيا .. وهو الضم الذى لم

تعترف به الأمم المتحدة التى اعتبرتها " أرضاً لم تقرر مصيرها بعد " .. وانتهى الأمر إلى انتزاعها من إندونيسيا بعد إجراء استفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة بموافقة غالبية السكان الذين أعربوا عن رغبتهم فى الاستقلال .. أقول إنه لولا الإسلام لكان نموذج تيمور قد تحقق بسهولة فى سائر أنحاء إندونيسيا ولاستقل العديد من الجزر التى يتشكل منها الأرخبيل الإندونيسى والتى تبلغ ١٧ ألف جزيرة منها حوالى ستة آلاف جزيرة مأهولة بالسكان . ولا يعنى ذلك أن إندونيسيا أصبحت بمأمن من أخطار التقسيم فهناك عوامل أخرى تعمل فى هذا الاتجاه ولكنها على أية حال ليست بالشدة التى تستعصى على إيجاد الحلول .

وبالرغم من أن المسلمين فى إندونيسيا يشكلون ٩٠٪ من السكان فيما يتوزع العشرة بالمائة الباقية على المسيحيين والهندوس والبوذيين واللادينيين بنسب متفاوتة.. إلا أن جميع الأديان تعامل رسمياً على قدم المساواة .. ففى وزارة الشؤون الدينية مثلاً ..يوجد خمسة وكلاء للوزارة يختص كل منهم بشئون أحد الأديان (المسيحية هناك مقسمة إلى كاثوليك وبروتستانت) ، كما أن رئيس الدولة يشارك فى الاحتفالات

الرئيسية لجميع الأديان وفضلاً عن ذلك فهناك فلسفة الدولة الرسمية التى تسمى البانشا سيلا وتعنى المبادئ الخمسة التى يلتف حولها المجتمع الإندونيسى بكل طوائفه والتى تدرس فى المدارس الرسمية والتى يبدأ كل احتفال عام بتلاوتها والتى تضم مبدأ الإيمان بالإله الواحد ومبدأ الوحدة من خلال التنوع .. وهناك انتقاد شديد لسياسة «البانشا سيلا» فى الدوائر الإسلامية فى إندونيسيا التى ترى أنها أصبحت العقيدة الرسمية للدولة التى يراها البعض وكأنها دين من وضع الإنسان .

(٢)

باهاسا أندونيسيا

فى أوج المد الناصرى وتأجج تيارات القومية العربية، طلب أحد الصحفين الغربيين من جمال عبد الناصر أن يعرف له من هو العربى ؟ فأجاب عبد الناصر بأنه الذى لغته الأم هى اللغة العربية .. وهو تعريف جيد بل إننى لا أجد تعريفاً آخر يجمع بين عدنان وقحطان والعرب العاربة والعرب المستعربة مثل هذا التعريف..

ولعل الكثيرين لا يعرفون أن دولة كبيرة كأندونيسيا هى رابع دولة فى العالم من حيث السكان _ لم يكن لها لغة موحدة حتى أوائل القرن العشرين وأن اللغة الاندونيسية أنشئت بقرار سياسى اتخذه ثوار أندونيسيا عام ١٩٢٨ .. حيث وضعوا أيديهم جميعاً على القرآن الكريم وأقسموا أن يجاهدوا فى سبيل إنشاء دولة واحدة موحدة ذات لغة واحدة .. ووقع اختيارهم على لغة الملايو التى تتحدث بها ماليزيا

والمنتشرة فى بعض سواحل اندويسيا وفى منطقة صغيرة من جزيرة سومطره تسمى رياو وأطلقوا عليها اسم باهاسا اندونيسيا أى لغة اندونيسيا وكان ذلك قرار حصيف حيث لم يختاروا لغة جاوه بالرغم من أن أكثر من نصف سكان اندونيسيا يقطنون فى جزيرة جاوه وهى التى جاء منها جميع حكام اندونيسيا حتى الآن باستثناء يوسف بحر الدين حبيبى الذى حكم لفترة قصيرة على أثر انتهاء حكم سوهارتو ..

ومن العجيب أن تجد رئيس جمهورية الدولة لا يتحدث اللغة الاندونيسية فى بيته ومع أهله فهم يتحدثون باللغة الجاوية (لغة جزيرة جاوه) وفى البداية كان معظم أبناء اندونيسيا يتعلمون اللغة الأندونيسية فى المدارس إلا أنه بعد مضى ما يزيد على نصف قرن من الزمان انتشرت اللغة الأندونيسية فعمت جميع الجزر وجميع فئات الشعب مما يعتبره البعض أهم إنجازات الحركة الوطنية الاندونيسية على الاطلاق.

وقد ظل صوت الوطنية الاندونسية خافتاً ولا يكاد يبين حتى حانت الساعة الحاسمة فى أغسطس عام ١٩٤٥ .

ففى يوم ١٢ أغسطس ١٩٤٥ .. ألقت الولايات المتحدة

قنبلتها الذرية الثانية فوق اليابان التى كانت تحتل أندونيسيا في ذلك الوقت بعد أن طردت المستعمر الهولندى وأعلنت اليابان استسلامها.. هنا كانت اللحظة التاريخية السانحة.. فاليابان لم يعد لها مصلحة في الاستمرار في إخضاع الشعب الإندونيسى حتى تسلمه للمستعمر القديم.. وكان على الحركة الوطنية بقيادة سوكارنو أن تحزم أمرها واستغرق ذلك خمسة أيام من النقاش والاستعداد ثم تم إعلان الاستقلال يوم ١٧ أغسطس ١٩٤٥ وكانت الحركة الوطنية تعلم أنها ستخوض معركة شرسه حيث كانت بوارج المستعمر القديم (هولندا) تصاحبها قوات الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا تبحر شطر الشواطئ الإندونيسية لإعادة احتلالها وبالفعل تم احتلال جاكرتا وتمركزت الحركة الوطنية في مدينة جوكجاكارتا التاريخية حيث كان سلطانها من أعمدة الحركة الوطنية.. ودار قتال ضار بين قوات التحرير الوطنية وقوات الاحتلال الهولندى.. وتوالت أنباء القتال الباسل مما ألهب المشاعر في مصر والعالم العربى فخرجت المظاهرات تجوب شوارع القاهرة منددة بالاستعمار ومطالبة بدعم المجاهدين وقادت جمعية الشبان المسلمين وآخرون من شخصيات

المجتمع المصرى تحركا لجمع التبرعات وإرسال المعونات كما قاد المرحوم عبد الرحمن عزام باشا تحركا سياسياً فى اطار الجامعة العربية (٧ دول فى ذلك الوقت) لتقديم الدعم السياسى لاستقلال اندونيسيا.

وكانت هولندا طوال هذا الوقت تصف حركة الاستقلال بأنها مجرد مذياع فى أحد غابات جاوه، لذلك كانت الحركة فى أمس الحاجة للاعتراف الدولى ولو من قبل دولة واحدة.

وقد جاء أول اعتراف قانونى بالجمهورية الإندونيسية ليس من دولة واحدة ولكنه اعتراف جماعى من قبل جميع الدول العربية المستقلة فى ذلك الوقت.. حيث أصدر مجلس جامعة الدول العربية المنعقد بالقاهرة فى نوفمبر١٩٤٦ قرارا إجماعياً بالاعتراف بالجمهورية الإندونيسية المستقلة، ولكن ظل ذلك قراراً من منظمة إقليمية يحتاج إلى التنفيذ من قبل كل دولة .. وكانت مصر أول المنفذين .. حيث أعلنت رسمياً اعترافها بالحكومة الوطنية.

وقررت مصر إعطاء هذا القرار زخماً عملياً وقانونياً وذلك من خلال إيفاد ممثل دبلوماسى عن الحكومة المصرية لإبلاغ الحكومة الوطنية الجديدة برئاسة سوكارنو بقرار الدول

العربية وبالقرار التنفيذى الذى أصدرته الحكومة المصرية بالاعتراف القانونى بالجمهورية الوليدة.

وقد صدرت التعليمات للقنصل العام المصرى فى ممباى (بومباى) فى ذلك الوقت المرحوم محمد عبد المنعم مصطفى بالتوجه إلى جوكجاكارتا وإبلاغ ذلك القرار للحكومة الإندونيسية الجديدة.

وكانت رحلة عبد المنعم رحلة محفوفة بالمخاطر وكان عليه أن يعد لها فى تكتم شديد.. فقام باستئجار طائرة داكوتا صغيرة يقودها طيار هندى متحمس للحركة الوطنية .. وقام برحلته التاريخية وسط حصار جوى وبحرى صارم من القوات الهولندية حيث كانت المعارك قد احتدمت بين المجاهدين الإندونيسيين وقوات الاحتلال، وهبط فى مطار جوكجاكارتا العاصمة المؤقتة لثوار إندونيسيا بقيادة سوكارنو ورفاقه- فى صباح يوم ١٣ مارس ١٩٤٧ وسط ذهول حراس المطار الذين شاهدوا طائرة صغيرة تهبط عليهم من السماء بلا علامات ولا أذن مسبق بالهبوط ودون اتصال بأى محطات أرضية وتحمل راكباً واحداً وقد أعلن هذا الراكب فور وصوله أنه مبعوث من الحكومة المصرية ومن الجامعة العربية ويرغب

في الاجتماع فوراً بالسيد سوكارنو.. وما أن أبلغ سوكارنو بذلك حتى هرع بنفسه وجمع رفاقة إلى المطار لاستقبال المبعوث المصرى وقام الجميع بأداء صلاة الجمعة في المسجد الأعظم في جوكجاكارتا وسط مظاهر من الحفاوة والحماسة التى لم يسبق لها مثيل، وقدم المبعوث المصرى دعوة من الحكومة المصرية لاستقبال وفد إندونيسى رسمى بالقاهرة وبالفعل حضر الوفد واستقبل فى مصر بحفاوة شعبية ورسمية بالغة تجاوزت حدود المراسم المعتادة حتى أن الملك فاروق أقام لهم مأدبة عشاء رسمية بالرغم من أن الوفد كان برئاسة وزير.

وقد أثمرت زيارة الوفد الإندونيسى عن توقيع معاهدة للصداقة والمودة بين مصر وإندونيسيا وهى أول معاهدة دولية فى تاريخ إندونيسيا كدولة مستقلة.

وقد تم توقيع المعاهدة يوم ١٠ يونية ١٩٤٧ ووقعها من الجانب المصرى المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية ووقعها عن الجانب الإندونيسى الحاج آجوس سليم وزير الخارجية التى تقرر بموجبها إنشاء علاقات تمثيل دبلوماسى وقنصلى بين

الطرفين وعقد اتفاق تجارى مؤقت وتنمية روابط المودة
والصداقة بينهما بكل ما لديهما من وسائل والتصدى لأى
عمل ضد السلام فى بلاد الطرف الآخر بكل الوسائل.

وعندما وصلت إلى جاكرتا فى أكتوبر ١٩٩٢ بعد خمسة
واربعين عاماً على هذه الواقعة وجدت الكثيرين يذكرون محمد
عبد المنعم بل وجدت أن اسم "مسترمونعم" معروفاً لدى العامة
.. وعندما حل العيد الخمسينى لاستقلال اندونيسيا قررت
الحكومة الاندونيسية منح اسمه أعلى أوسمه الدولة وكذلك
اسم المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا واسم المرحوم
عبد الرحمن عزام باشا .. وقد أقمت احتفالا لهذه المناسبة
تخللته ندوة حول العلاقات المصرية التاريخية من المنظور
التاريخى وصاحبها معرض لصور تاريخية نادرة لتلك
السنوات الحافلة فى تاريخ العلاقات المصرية الأندونيسية
وأسجل امتنانى هنا للسيدة بوبى شهرير حرم أول رئيس
وزراء لاندونيسيا فى ذلك الوقت والتى اقرضتنى هذه الصور
النادرة .. كما قامت السفارة بطباعة المعاهدة المصرية
الاندونيسية على ورق البردى لهذه المناسبة.

ولنرى الآن ماذا تقول الوثائق الإندونيسية عن هذه

نعاهدة التاريخية فقد جاء فى الوثيقة التى أصدرتها وزارة خارجية الإندونيسية عام ١٩٩٥ احتفالاً بمرور خمسين عاماً ى استقلال إندونيسيا ما يلى بشأن هذه المعاهدة:

"فى الواقع كانت هذه المعاهدة ضربة أخرى فى المجال دبلوماسى، أثارت انزعاج هولندا وأدت إلى قيام سفيرها لقاهرة السفير جراف دوث فان يخترن ليمبورج بتقديم حتجاج إلى الحكومة المصرية قبل توقيع الاتفاقية بنصف ساعة حيث حضر السفير الهولندى فجأة ودون موعد سابق ى مقر وزارة الخارجية المصرية والح فى طلب إلغاء جراءات التوقيع على المعاهدة بل وانذر مصر بأن تلك لاتفاقية قد تؤدى إلى آثار سيئة على العلاقات الاقتصادية ين هولندا ومصر، بيد أن الحكومة المصرية لم تبال ورفضت لك الضغوط وتم التوقيع فى الموعد المحدد".

وتمضى الوثيقة الإندونيسية فتقول:

"وبرأسمال هذه الاتفاقية أصبحت الحكومة الإندونيسية أكثر انطلاقاً فى ممارسة دبلوماسيتها خارج البلاد، ولاسيما حين طرحت القضية الإندونيسية للبحث فى مجلس الأمن كنتيجة للحركة الهجومية التى قامت بها هولندا وأسمتها الحركة الأمنية (ويذكرنا هذا بما تقوم به إسرائيل من جرائم

حرب تحت نفس الشعار)، كما أنه لم يعد بالإمكان الاستمرار في الإدعاء بأن الجمهورية الإندونيسية ليست إلا مذياعا إذاعيا لعصابة من الإرهابيين (نفس كلام شارون وحكومته)، حيث أن الأمر الواقع قد فرض نفسه وهو أن إندونيسيا دولة مستقلة ذات سيادة، وقد أعلن المرحوم محمد حتا نائب رئيس إندونيسيا عند زيارته للقاهرة عام ١٩٤٩:

"إن انتصار إندونيسيا الدبلوماسى فى واقع الأمر بدأ من مصر"

وتدلنا هذه الوقائع التاريخية على أن هناك ثوابت فى السياسة الخارجية المصرية تحكمها عناصر القومية والدين والموقع والجغرافيا السياسية هى التى دفعت الدبلوماسية المصرية فى العهد الملكى قبل ثورة عام ١٩٥٢ إلى القيام بهذا التحرك الثورى استجابة لنبض الشارع مما يؤكد أن هناك من الثوابت ما لا يتغير بتغير أنظمة الحكم فهناك خطوط أساسية فى دبلوماسية أى بلد تفرض نفسها مهما تغير نظام هذا البلد وتأرجح من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .. وهى خطوط تفرضها اعتبارات التاريخ والجغرافيا والجيوبوليتكس ..

فمصر الولاية العثمانية ومصر الحماية البريطانية ومصر الملكية المستقلة ومصر الثورة ومصر الاشتراكية ومصر الانفتاح والاقتصاد الحر ومصر الحالية ومصر مهما تعاقبت عليها الأنظمة والحكومات .. سيلمح المراقب لها خطوطا فى السياسة الخارجية لا تتغير ، فقد حاربت مصر من أجل فلسطين فى ظل عهودها المختلفة ، كما نجد فى مثالنا هذا عن اندونيسيا نموذجا لتحرك دبلوماسى مصرى أخذت فيه مصر الملكية قبل الثورة خطاً ثوريا قد يثير استغراب المعاصرين، فقد أيدت بكل قوة ثورة اندونسيا ونضالها من أجل الاستقلال ومد يد العون والمناصرة إلى الثائر سوكارنو فى تحرك خلاق استجابت فيه الدبلوماسية المصرية لنبض الشارع وتحركت تحركاً نشطاً وغير نمطى ولا يخلو من المخاطر وهذا هو الملك فاروق يقيم حفل عشاء لمبعوثى الثائر سوكارنو الذى لم تعترف به دولة واحدة قبل مصر ثم يوقع مع حكومته معاهدة صداقة وهذا هو عبد الناصر يقيم أوثق علاقات الصداقة مع سوكارنو الذى يستضيفه فى باندونج فى أبريل عام ١٩٥٥ ليشهد مع زعماء آسيا وأفريقيا مولد النواة الأولى لحركة عدم الانحياز .

(٣)
فضيلة الشيخ السفير

كثيرا ما كان يحمل البريد الوارد للسفارة رسائل معنونة باسم "فضيلة الشيخ السفير" تدعو السفير للمشاركة فى مناسبة إسلامية أو تدعوه لافتتاح معهد إسلامى أو لإلقاء محاضرة به وكنت أحرص على تلبيتها قدر الاستطاعة وعندما استضافت أندونيسيا اجتماع وزارة خارجية الدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامى فى صيف عام ١٩٩٤ لم يتمكن وزير خارجيتنا من الحضور وكلفنى برئاسة وفد مصر لدى المؤتمر .. وقد شاركت فى العديد من اجتماعات منظمة المؤتمر الإسلامى على مستوياتها المختلفة وتوليت رئاسة وفد مصر فى عدد منها ، وعند استضافة إحدى الدول الأعضاء لمثل هذه المؤتمرات سيلحظ المراقب اختلافاً فى سلوك الدولة المضيفة يضفى عليها مسحة إسلامية فحتى لو كانت علمانية التوجه وذلك خلال أسبوع المؤتمر فتجد الغرف فى الفندق قد زودت بالمصاحف وسجاجيد الصلاة والملصقات التى بها مؤشر يشير إلى اتجاه القبلة ... ولكن دولة إسلامية مثل

أندونيسيا لا تجد مشكلة تذكر فى هذا السبيل أما فى تركيا فهناك الكثير من الحساسيات السياسية والرواسب التاريخية فقد كان رئيس جمهورية تركيا مثلاً يجلس خارج القاعة لحين انتهاء القارئ من تلاوة آيات القرآن الكريم فى حفل الافتتاح ثم يدخل الرئيس ليفتتح المؤتمر وأول رئيس دولة تركى كسر هذا التقليد وجلس أثناء تلاوة القرآن هو تورجت أوزال وقد سمعت من الدكتور محمد أحمد على رئيس البنك الإسلامى للتنمية والذى يرجع إليه الفضل فى المكانة العالية التى اكتسبتها هذه المؤسسة التمويلية والتنموية الكبرى قصة طريفة لها صلة بموضوعنا هذا .. إذ عرض عليه مشروع يتعلق بالجالية الإسلامية فى كوريا الجنوبية وعلم أن الإسلام وصل إلى كوريا حديثا وبالتحديد فى الخمسينيات من القرن العشرين أثناء الحرب الكورية عندما اجتاحت القوات الصينية والكورية الشمالية خط الهدنة وتصدت لها القوات الأمريكية على رأس " تحالف دولى " تحت علم الأمم المتحدة وكان من بين قوات هذا التحالف الدولى قوة تركية .. وعند وصول القوة التركية لأول مرة سألهم ضابط الاتصال الأمريكى عن " القس The Priest " المرافق للقوة حيث تقضى التقاليد

العسكرية بضرورة وجود رجل دين مع كل قوة محاربة لتولى الوعظ أو على الأقل تأمين مراسم الدفن وفقا لعقيدة الجندى المقتول فأسقط فى يد الأتراك فهذا الموضوع لم يخطر لهم ببال إلا أنهم دفعا للحرج قالوا : إنه سيصل فى رحلة تالية وقاموا على وجه السرعة بإجراء الاتصالات اللازمة لتأمين وصول أحد الشيوخ .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينضم فيها أحد الشيوخ إلى معقل الأتاتوركية العلمانية وهو الجيش التركى الذى لازال حتى الآن يحاكم الذين يؤدن الصلاة فى الثكنات .

وكان وصول هذا الشيخ التركى الذى جلبه جيش أتاتورك العلمانى المعادى للإسلام سبباً فى اعتناق بعض الكوريين للدين الإسلامى ثم تنامى العدد بعد ذلك حتى أصبحت جالية ذات مؤسسات لها علاقات بمنظمة المؤتمر الإسلامى .« . و ما يعلم جنود ربك إلا هو ... " .

هذا عن تركيا .. أما فى أندونسيا فالأمر أيسر من ذلك بكثير فالبيئة الإسلامية حقيقية وخالية من الافتعال .. ويحضرنى الآن ذكرى موقف قلما يتعرض له السفير فى أدائه لمهامه فقد فوجئت فى اليوم الأخير لمؤتمر وزراء

الخارجية بمدير المراسم مهرولاً فى اتجاهى فى شئ من الاضطراب ويرجونى فى شبه توسل أن أنقذ الموقف وأتولى خطبة الجمعة وإمامة الصلاة حيث الوزراء يجلسون منذ قرابة الساعة فى القاعة المخصصة للصلاة ولم يحضر الشيخ حتى الآن وقد استنفدوا جميع المحاولات ولا يوجد بديل أخر للخروج من هذا المأزق .. استشرت زميلى فى الوفد السفير محمد عز الدين مساعد وزير الخارجية حاليا فأشار بألا أتردد لحظة واحدة .. لم يكن لدى دقيقة واحدة للتحضير فاستجمعت بعض ما قرأته وسمعته حول تفسير سورة الكهف وهى السورة التى لها أشد الارتباط بيوم الجمعة ودلفت إلى القاعة وكان على العطاس وزير خارجية الدولة المضيفة اندونسيا يجلس فى الصف الأول ويبدو عليه ملامح القلق وبجواره الدكتور عز الدين العراقى رئيس وزراء المغرب الأسبق والذى تم انتخابه فى تلك الدورة أمينا عاماً للمنظمة .. فصعدت إلى المنبر وبدأت الخطبة باللغة العربية أولا ثم بالإنجليزية بعد أن شرحت للحاضرين سبب قيامى بهذه المهمة .. وأذكر أنى قلت أننا ستصادفنا فى حياتنا وفيما نشهده ونمر به أو يمر بنا من أمور الدنيا أشياء غير مفهومة

.. بل ويبدو فيها التناقض واضحاً.. فهذا إنسان يعاقب على عمل صالح قام به وآخر يثاب على معصية.

وقد نبهنا الله سبحانه وتعالى إلى ذلك وأنه ستمر بنا فى حياتنا الدنيا أشياء لا نفهمها لأننا لا نعرف حكمتها" وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً " فهذا سيدنا موسى عليه السلام ليس شخصا عاديا بل من أولى العزم من الرسل.. فلنتوقف لحظات أمام هذه المشاهد العظيمة من سورة الكهف التى تحكى عن رفقة سيدنا موس للعبد الصالح التى لم تدم طويلا.. لأنه لم يطق صبرا ولم يحط علما.

المشهد الأول :

"حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها" يعنى ناس أدوا لك خيرا فجازيتهم بشر _ فى ظاهره- أى إحسان ظاهر يقابل بإساءة ظاهرة.

المشهد الثانى:

" حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا" وهنا أيضاً غلام برئ ونفس زكية قتلت بغير ذنب- وهنا الخاطرة الجانبية التى تحضرنى أن هناك كما نعلم ثلاثة أحداث فى مسيرة موسى والعبد

الصــالح.. وهناك تعـهـد من مـوسـى ألا يسـال عن شئ من الأشياء الغريبة التي سيراها حتى يحدثه العبد الصالح عنها ويشـرح له .. ومع ذلك عند خـرق سـفـينة المسـاكـين الذين يعملون فى البحر ويتقوتون وعائلاتهم من هذه السفينة.. لم يستطـع موسى أن يمسك نفسه ونسى وعده وبادر بسؤال فيه من الاستنكار أكثر مما فيه من الاستـفسـار فكان الرد " ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ".

لذلك كان يجب أن يكون المشهد الثانى مروعا وهو القتل .. أكبر الكبائر.. قـتل النفس الزكـية بغير النفس.. حتى يخـرج مـوسى عن التـزامـه وينسى للمرة الثـانيـة وعده وتـعـهـده على الرغم من أنه قريب عهد به" أقتلت نفسا زكية بغير نفس.. لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا" ويعتذر للمرة الثانية ويصبح لديه فرصة وحيدة ثالثة حيث قال : " إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا" لذلك نجده عليه السلام فى المرة الثالثة عندما استطعما أهل القـرية فـأبوا وقـام العبد الصالح بإعادة بناء جدار لهم كان على وشك السقوط نجد سيدنا مـوسى قد أمسك نفسه عن الأسئلة سواء أسئلة استفسار أم استنكار ولكن الحيرة

لازالت تتملكه.. فألقى استفساره فى صيغة تعليق: لو شئت لأتخذت عليه أجرا يعنى _ أنا لا أسأل ولا أعترض ولكن أقول إنه كان بالإمكان حصولنا على أجر لقاء هذا العمل لشراء ما يلزمنا من الطعام الذى منعونا إياه هؤلاء القوم.. ولكنه بالنسبة للعبد الصالح- الذى لا يعمل بأمر نفسه بل يتصرف بأمر الله.. وما فعلته عن أمرى.. بالنسبة له.. فهذا نقض ثالث وأخير للعهد يوجب تطبيق الشرط الجزائى بلغة العصر.. وكان التعهد من جانب موسى واضحا وهو " إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذرا" والحقيقة أن موسى ببشريته وفى حدود علمه كان محقا فى تساؤلاته الغاضبة ، فالأمر فى ظاهره .. خير يقابله شر.. فقراء حملوهم فى سفينتهم ولم يأخذوا منهم أجرا فخرقوها لهم ثم الجريمة الكبرى.. قتل الغلام بدون ذنب وحرمان الأبوين المؤمنين فلذة كبديهما .. ثم مكافأة قرية اللئام الذين رفضوا إطعامهما .. وذلك ببناء الجدار لهم دون مقابل أى مكافأة للإساءة.. والحقيقة أن كل هذه المشاهد العظيمة تدور حول مكافأة المسئ والإساءة إلى المحسن.. هذا فى ظاهر الأمر بالنسبة للبشر.. ولكن عندما أحطنا بها خبر وجدنا أن

خرق السفينة كان فيه النجاة والخير الكثير لأصحابها حيث بدأ الملك بعد ذلك يأخذ كل سفينة غصبا.. طبعا كل سفينة صالحة للملاحة أى يصادر السفن الصالحة لمصلحة المجهود الحربى بتعبير العصر.. فكان فى خرق السفينة مصلحة إذ تركها عمال الملك.. ومفهوم ضمنا انهم أصلحوها وواصلوا العمل بها. اذن ظاهر العمل إساءة وباطنه فيه الرحمة:

وأيضاً الغلام أبن الأبوين المؤمنين كان سيرهقهما- عندما يكبر _ طغيانا وكفرا _ لذلك قضى الله عليه الموت وبذلك أنقذه هو أولاً من سوء عمله الذى كان ينتظره _ وانقذ أبويه من طغيانه وعوضهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحما ولم يعد لهما جزاء إلا الجنة بثكلهما لولدهما وصبرهما إذن ظاهر العمل إساءة وباطنه فيه الرحمة أيضاً.

أما المشهد الثالث فنلحظ فيه عكس ما حدث فى المشهدين الأولين فهنا ظاهر العمل ليس إساءة إلى المحسنين ولكن إحسان الى المسيئين.. كل ذلك حتى نتأمل وتكون هذه النماذج حاضرة في أذهاننا إذا مرت بنا أحداث ظاهرها فيه إساءة إلى المحسنين أو إحسان إلى المسيئين.

هنا تجد أن بناء الجدار لم يكن المقصود به الإحسان إلى

أهل القرية الظالمة ولكن حماية الطفلين اليتيمين من ظلم أهل هذه القرية الذين رفضوا حتى إطعام المسافر الغريب الذى لا مأوى له.. فلو سقط الجدار الذى كان أيلا للسقوط وظهر الكنز المدفون تحته لاستولوا عليه وحرموا اليتيمين منه.

بعد انتهاء الخطبة وأداء الصلاة شكرنى على العطاس وأشار معتذراً إلى مشكلة اللغة الإنجليزية التى تواجه علماء الدين الإسلامى فى أندونيسيا أما عز الدين العراقى فعندما قام بزيارة مصر للمرة الأولى بصفته الجديدة واجتمع مع عمرو وموسى وزير الخارجية ودخلت للمشاركة فى الاجتماع فصاح قائلا هذا إمامنا فابتسمت متذكراً ذلك اليوم.

(٤)

وتساوينا جميعا حين قمنا للصلاة

كنا فى مهمة رسمية أخذتنا إلى مدينة داكا عاصمة بنجلاديش .. حيث عقد بها الاجتماع السنوى لمجلس محافظى البنك الإسلامى للتنمية ومحافظى البنوك المركزية بالدول الإسلامية ودعانا السفير المصرى إلى العشاء بمنزله بعد يوم حافل بالاجتماعات.. وبعد أن جلسنا قليلاً استأذناه أن نصلى العشاء فقال أصلى معكم فأنا على وضوء. وسرعان ما أقام أحدنا الصلاة وانتظمنا فى صف واحد.. وذلك فى لحظة دخول الخادم المحلى البنجلاديشى ، يحمل المشروبات فما كان منه إلا أن وضع "الصينية" وجاء مسرعا إلى الصف ووقف بجوارنا مكبرا تكبيرة الإحرام .. الله أكبر. سعدت به وهو يقف إلى جوارنا بعد أن أزالت تكبيرة الاحرام الفوارق التى صنعها البشر خاصة فى بلد كبنجلاديش التى كانت هى وباكستان جزءا من الهند ولا زال الشعب البنغالى منقسما بين بنجلاديش والهند... الهند التى تبلغ بها التفرقة بين البشر التى فرضتها العقائد والموروثات حدا يصل إلى

اللغة فهناك لغة الطبقة العليا وأخرى للوسطى وثالثة للدنيا..

وفى إحدى زياراتى لجزيرة بالى بأندونيسيا سألت مرافقى وكان من الهندوس أى اللغات يختار عندما يتحدث إلى أغراب لا يعرفهم، فقال إننا نبدأ الحديث باللغة الوسطى لأن اللغة العليا هى لغة الملوك والأمراء وعلية القوم وهم عادة لا يتواجدون فى الشوارع، فإذا كان محدثى من الطبقة الدنيا فسرعان ما ينبهنى، فقلت له وما الذى يجعلكم تقبلون هذا؟ فأجاب بدهشة إنه أمر الله وقد يكون فى خلقى من الدرجة الدنيا تطهير لى من الذنوب.. سبحان الله.. قل أمر ربى بالقسط.. " الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها"، حقا إن الأشياء تعرف بأضدادها.

أشياء عظيمة نأخذها كمسلمات وقد لا نلقى لها بالا وهى من جلائل النعم.

تداعت إلى ذهنى هذه الصورة وأنا أقرأ مقالاً نشر بعدد شهر رمضان من مجلة الأزهر حول كتاب النفحات للدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله الذى يقول فى مقدمته " لقد بدا لى وأنا فى كراتشى أثناء عملى سفيرا لمصر فى باكستان أول رمضان عام ١٣٧٠ أى حوالى عام ١٩٥٠م أن أخط كل

ليلة مقالا قصيرا فيما يخطر لي من خاطرات وكرت الأيام ومرت الشهور وقد وفيت بما التزمت"

ويقول في إحدى هذه الخاطرات:

صليت العشاء والتراويح الليلة وعلى يمنى وشمالى خدم السفارة وآنست بهم ورأيت معنى الأخوة الإسلامية جليا فى هذا الجمع ونظرت إلى المصلين أتوسمهم فوجدت أخر الصف إلى اليمين (سلفانا) هذا الشيخ الذى يعمل فى المضخة التى ترفع الماء إلى الطبقات العليا من دار السفارة ورأيت على اليسار (كوترا) الكناس الذى يتعهد الدار بالتنظيف كل صباح ومساء وسرنى أن رأيته معتما فى غير ثياب المهنة التى يعمل فيها. سنة الإسلام فى المؤاخاة والمساواة.

وجاوزت هذا الظاهر الجميل المتناسق إلى ما هو أعظم إلى التناسق الباطن فى الفكر والروح إلى المعنى الذى لا يحده زمان ولا مكان، اتصال هذه الأرواح بالله الواحد وهم عند الله سواء، لكن هذه المساواة لا تحرم أن يكون فى الناس قائد ومقود وسائد ومسود وخادم ومخدوم وآمر ومأمور فإن ائتلاف الجماعة لا يكون إلا بهذا الاختلاف كآلات الساعة

فيها الكبير والصغير والمستقيم والمنحنى والمستدير والدافع والمدفوع ولكنها تأتلف فى الحركة المؤدية إلى سيرها.

وقد نظم _ رحمه الله _ هذا المعنى شعراً فى قصيدة يقول فى مطلعها:

قد تساوينا جميعاً حين قمنا للصلاة

وركعنا وسجدنا   فاستوت منا الجباه

والحمد لله رب العالمين

***

الفصل الثامن :

القانون الدولى الحائر

١ - الدبلوماسية الوقائية وحق التدخل الإنسانى
٢ - المحكمة الجنائية الدولية
٣ - هل هو حقا من قبيل اللامعقول ؟
٤ - المكسيك تعترض ! !
٥ - مناهضة التعذيب
٦ - حتى ولو لم يكن مصريا ! !

(١)

جدال القرن الجديد

الدبلوماسية الوقائية وحق الدخل الإنسانى

الدبلوماسية الوقائية تعبير شاع استخدامه فى الفترة الأخيرة وانتقل من مراكز البحث الأكاديمى إلى مراكز صنع القرار على المستوى الدولى.. وهو باختصار صياغة جديدة للحكمة القديمة التى تقول : " الوقاية خير من العلاج" .. وأنصار هذه الدبلوماسية الجديدة يطالبون المجتمع الدولى بالعمل على حل المنازعات قبل استفحالها وتفريغ الصراعات من عناصرها المتفجرة .. فمن المشاهد الآن أن الأمم المتحدة تذهب إلى مناطق الصراع " بعد خراب مالطة" لتقوم بعد الجثث ونزع الركام ونشر الخيام للاجئين ومد يديها إلى المحسنين لإطعام الجائعين وكفالة الأيتام.. وكان حريا بها أن تذهب بمجرد بدء تصاعد الدخان من فوهة البركان.

وقد أعلنت وزيرة خارجية السويد التى تعد من أشد الدول تحمساً للدبلوماسية الوقائية _ آرائها حول هذا الموضوع من

خلال تساؤلات عدة منها :

- ألاّ نقوم بتعلية جسور الأنهار عندما نخشى من طغيان الفيضان؟

- ألا نقاوم الآفات الزراعية قبل أن تقوم بمهاجمة المزروعات ؟

- ألا نقوم بالتطعيم والتحصين ضد الأمراض والأوبئة قبل انتشارها؟

- ألا نصرف ملايين الدولارات على الأبحاث العلمية للتنبوء بالكوارث الطبيعية قبل وقوعها ؟

- ألا يعد كل ذلك من قبيل السياسات والإجراءات الوقائية؟

- فلماذا إذن لا نفعل نفس الشئ بالنسبة للحروب ؟

وقد هزت الأمم المتحدة رأسها وقالت نعم حقا ولكن .. ولكن الحروب لم تعد كما كانت في الماضى .. حروباً بين الدول .. إن معظمها حالياً هى حروب داخل الدولة الواحدة .. حروب أهلية بشعة تزكيها سياسات عنصرية ودائرة شريرة من التطهير العرقى وجرائم إبادة الجنس .. تستصرخ الضمير العلمى أن يفعل شيئا لوقفها .. ولكن ذلك يصطدم

بأحد الأعمدة الخراسانية التى يقوم عليها النظام العالمى الذى أرسيت قواعده بعد الحرب العالمية الثانية وهو مبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء.. فقد بدت قاعات الأمم المتحدة وأروقتها تموج بأسئلة كبيرة يعوزها الجواب .. من الذى يتدخل ؟ وعلى أى أساس قانونى ؟ وما هى المعايير التى تبيح هذا التدخل ؟ ومن الذى يحددها ؟ ثم ..وماذا نصنع بمبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء ..؟

لقد ضرب حلف الأطلنطى بكل هذه التساؤلات عرض الحائط وذهب إلى كوسوفو وأنهى جريمة إبادة الجنس التى كانت دائرة هناك وأعاد النظام والقانون وصفق العالم فرحاً وطرباً _ ثم راحت السكره وجاءت الفكرة .. ماذا لو استقر هذا المبدأ.. مبدأ التدخل الإنسانى بالقوة فى دولة ما دون تفويض من الأمم المتحدة.. لقد كانت حالة كوسوفو _ كما قال السيد عمرو موسى وزير الخارجية فى بيانه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٣ سبتمبر ١٩٩٩ .. حالة نادرة من التوافق والاختلاف العالمى فى آن واحد .. توافق حول ضرورة العمل الفورى لوقف جريمة التطهير العرقى ..

واختلاف في ذات الوقت بشأن من له حق التصرف.. ففي ظل ممارسات تتسم بازدواجية المعايير الفاضحة.. من الذي يضمن أن "حق التدخل الإنساني" هذا لن يستخدم في المستقبل لفرض سياسات وتحقيق مصالح؟

لقد أقلق ذلك الكثيرين في دوائر وزارات الخارجية والمشتغلين بالشئون الدولية إلاّ أن درجة القلق والاهتمام تصاعدت بعد أن اختار كوفي عنان هذا الموضوع لكي يجعله الموضوع الأوحد في مقدمة تقريره السنوي وفي بيانه الافتتاحي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والخمسين.

قال كوفي عنان أن عام ١٩٩٨ كان أسوأ سنه في تاريخ البشرية بالنسبة للكوارث الطبيعية التي راح ضحيتها نحو ٥٠ ألف نسمه، هذا من ناحية الكوارث الطبيعية.. أما الكوارث التي من صنع الإنسان وعلى رأسها الحروب فبعد أن ظن أهل الأرض أنهم قادرون على منع الحروب وبعد أن لاح في الأفق اتجاه تدريجي نحو عالم تقل فيه الحروب فتكا وعدداً ، إذا بالصراعات المسلحة تندلع من جديد وإذا بالحروب القديمة يشتد احتدامها وإذا بسياسة التطهير

العرقى تنبثق فى نهاية هذا القرن كبينة بشعة وساطعة على فداحة المغارم التى تسببها أيديولوجيات قائمة على الهوية وسياسات وإعلاميات تنزع عن الآخرين صفة الإنسانية ولقد تسببت الكوارث الطبيعية فى الستينات فى أضرار بلغت تكاليفها ٥٢ بليون دولار.. أما التكلفة التى تحملها المجتمع الدولى عن الحروب السبع الكبيرة التى اندلعت فى التسعينات _ باستثناء كوسوفو _ فقد بلغت ١٩٩ بليون دولار.

ويختتم السكرتير العام بيانه بعبارة لا يختلف عليها اثنان وهى أن الأمن الجماعى فى إطار النظام الدولى هو مسئولية مجلس الأمن ويذكرنا فى هذا المقام بالمادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة التى تشير إلى أنه من مقاصد الأمم المتحدة " اتخاذ التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم ولإزالتها".. أى يريد السكرتير العام أن يقول : إن نظرية الدبلوماسية الوقائية ليست بدعه من البدع ولكنها منصوص عليها فى الميثاق بل وفى مادته الأولى التى تطالب مجلس الأمن بإزالة الأسباب التى إن استمرت هددت السلم والأمن الدوليين .. ولكن النهج السائد فى

ممارسات مجلس الأمن خلال السنين الماضية كان يتسم برد الفعل لا الوقاية.

كل ذلك حسن ومقبول ومفهوم ولكن تبقى المشكلة المستعصية وهى أن ميثاق الأمم المتحدة يتحدث عن النزاعات بين الدول وليس داخل الدول.. حيث أن أحد أركان النظام العالمى القائم هو عدم التدخل فى الشئون التى تقع فى صميم الاختصاص الداخلي للدول .. بينما تشكل الصراعات المسلحة داخل الدول ٩٠٪ من مجموع الصراعات المسلحة فى العالم.

ولاشك فى أن السنوات المقبلة ستشهد صراعاً بين مدرستين من الفكر القانونى.. واحدة تدافع عن القانون الدولى التقليدى الذى يؤكد على حرمة سيادة الدول وأخرى تطالب بتطويع وتطوير القانون الدولى لكى يسمح بالتصرف بحزم فى مواجهة الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان.

وعلى أى حال وأياً كان المرسى الذى سترسى عليه هذه المفاهيم الجديدة.. فإن أى نظام للأمن الدولى يجب أن يقوم على أساس ميثاق الأمم المتحدة وأى إجراءات تتخذ ضد دولة ما يجب ألا تتم بغير إذن من مجلس الأمن فهذا وحده هو

الذى يوفر أساساً مقبولاً للتعاون الدولى ودعماً للاستقرار والأمن والسلام فى العالم.

وقد أعلن وزير الخارجية موقف مصر فى بيانه بالأمم المتحدة حيث قال : "إننا فى مصر نعتقد ويشاركنا الكثيرون أن أى جهد دولى يجب أن ينبع من مجلس الأمن فإن لم يستطع فالجمعية العامة لأنه بصرف النظر عن مسمى النظام الدولى _ قديم أم جديد _ فإن المشاركة الدولية فيه يجب أن تكون فى إطار الأمم المتحدة".

لقد كان هذا الموضوع بلا شك هو " جدال دورة الجمعية العامة التى عقدت فى نهاية القرن العشرين ، وتشير الدلائل أنه سيكون جدال القرن الحادى والعشرين خاصة بعد عدوان الولايات المتحدة وبريطانيا السافر على العراق خارج إطار الشرعية الدولية والذى هز أركان النظام العالمى المعاصر القائم على عدة ركائز مثل قدسية الحدود ومفهوم السيادة والسلامة الإقليمية لأراضى الدول ومبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية بل ومفهوم الدولة فى حد ذاته..

(٢)
المحكمة الجنائية الدولية

وفقاً للنظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية فإن نظامها الأساسى يدخل حيز النفاذ فى اليوم الأول من الشهر الذى يعقب اليوم الستين من تاريخ إيداع الصك الستين للتصديق على هذا النظام .. وهذا اليوم كان يوم أول يوليو ٢٠٠٢ .

وقد ظل موضوع إنشاء محكمة جنائية دولية تتعقب مرتكبى أبشع الجرائم وتحاكمهم وتعاقبهم حلماً يراود البشرية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وظلت الفكرة تظهر بين الحين والحين ويتداولها الأكاديميون ويتم تفعيلها أحيانا من خلال محاكم مؤقتة تنشأ لمواجهة حالة بعينها مثل محكمة يوغوسلافيا السابقة أو محكمة رواندا .. إلا أن هذا الخيال أو الحلم قد أصبح حقيقة واقعة عندما انعقد فى روما المؤتمر الدبلوماسى لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية فى الفترة من ١٥ يونيو ١٩٩٨ حتى ١٨ يوليو ١٩٩٨ والذى أقر النظام

الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية ، وقد تم اكتمال التصديقات اللازمة (٦٠ دولة) لدخول النظام حيز النفاذ وذلك فى فترة وجيزة لم يكن يتوقعها أحد نظراً للمعارضة الشديدة للولايات المتحدة لإنشاء هذه المحكمة ، وقد كان أمراً لافتاً أن تعجز الولايات المتحدة تماماً عن تحقيق هدفها فى وقت اكتملت فيه هيمنتها على العالم وبالرغم من وقوف كل من روسيا والصين إلى جانبها إلا أنه باستثناء هذين القطبين العالميين وبعض الدول الصغيرة التى تدور فى فلك الولايات المتحدة ، فلم يحظ الموقف الأمريكى بمساندة تذكر ، حتى المملكة المتحدة اتخذت موقفاً معارضاً للسياسة الأمريكية _ الموضوعية والإجرائية _ وقامت بدور نشط فى جهود ترويج النص.

وإزاء هذه الوضع الشديد الانعزال للولايات المتحدة ، فقد حركت موقفها من موقف الرفض التام للفكرة إلى القبول بشرط إخضاع المحكمة لسلطة مجلس الأمن (عادت الولايات المتحدة إلى موقف الرفض التام فى عهد إدارة الرئيس بوش الحالية وسحبت توقيع بيل كلينتون على النص) نقول أبدت الولايات المتحدة استعدداً للقبول بشرط إخضاع المحكمة

لمجلس الأمن وبشرط نبذ فكرة الاختصاص الاصيل للمحكمة وتقدمت باقتراح " الاختصاص لمن يقبله" ومن التعبيرات الأمريكية التى صيغت فى هذا الصدد تعبير Opt in أو Opt out ، أى يكون للدول عند انضمامها الحق فى أن تعلن قبولها أو عدم قبولها لاختصاص المحكمة فى جرائم معينه .. كما طالبت الولايات المتحدة _ كثمن لقبولها _ النص على اشتراط حصول موافقة دولة الجنسية حتى يتسنى المضى فى إجراءات الدعوى بالنسبة لمواطن الدولة وذلك بالطبع حماية لجنودها المنتشرين فى مختلف أنحاء العالم _ كما رفضت الولايات المتحدة منح المدعى العام سلطة تحريك الدعوى .

وفى محاولة من الدول لجذب الولايات المتحدة نحو الموافقة تم إدراج فقرة فى الأحكام الانتقالية تأخذ بوجهة النظر الأمريكية الخاصة بالقبول الانتقائى لاختصاص المحكمة إلا أنها جعلت ذلك نصاً انتقالياً يسرى لمدة سبع سنوات من بدء نفاذ النظام الأساسى ، فقد قضت المادة (١٢٤) بجواز إعلان الدولة عدم قبولها اختصاص المحكمة فيما يتعلق ببعض الجرائم إذا ما تعلق الأمر بجريمة وقعت فى إقليمها أو

ارتكبت بواسطة مواطنين لها ويسرى ذلك النص لمدة سبع سنوات ويعاد النظر فيها فى أول مؤتمر مراجعة للنظام الأساسى .

ولم يكن ذلك كافيا لجذب الولايات المتحدة قريبا فى المحكمة ، وإزاء فشلها فى إقناع الغالبية بقبول مقترحاتها وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة للتقدم رسميا بهذه المقترحات ، وقد كان من الأمور اللافتة للنظر أن تنبرى لها دولة مثل النرويج وتتقدم بدفع إجرائى بعدم اتخاذ قرار بالنسبة للمقترحات الأمريكية وهو ما يسمى No Motion Action ونجح الدفع النرويجى بأغلبية ساحقة ولم تجد الولايات المتحدة سوى ١٦ دولة يصوتون لصالحها .

الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة :

ثلاث جرائم فقط تختص بها المحكمة هى :

- جريمة إبادة الجنس أو الإبادة الجماعية .
- الجرائم ضد الإنسانية .
- جرائم الحرب

أما الجريمة الرابعة وهى جريمة العدوان _ فقد تم إدراجها مع إيقاف التنفيذ لحين توصل المجتمع الدولى إلى

تعريف متفق عليه للعدوان ووضع الشروط التى بموجبها تمارس المحكمة اختصاصها فيما يتعلق بهذه الجريمة.

وكما نرى فإن إسرائيل ارتكبت من الجرائم فى حق الشعب الفلسطينى مايتدرج فى إختصاص هذه المحكمة فهل يمكن تحريك الدعوى ضد المسئولين الإسرائيليين بالرغم من عدم انضمام إسرائيل إلى نظام المحكمة .. وتحدد المادة (١٢) الخاصة بالشروط المسبقة لممارسة الاختصاص حالتين اثنتين لممارسة هذا الاختصاص :

- أن تكون الدولة التى وقعت فى إقليمها الجريمة طرفا فى النظام .

أو

- أن يكون الشخص المتهم من جنسية دولة طرفا فى النظام .

وبالطبع فإن كلا الحالتين لا توفر الشروط لإقامة الدعوى ضد المسئولين الإسرائيليين .

ونذكر فى هذا السبيل أنه خلال اجتماع مؤتمر روما تقدم الوفد الكورى باقتراح إضافة حالة ثالثة وهى أن يكون الضحية من رعايا دولة طرف ، وقد تصدى أصدقاء إسرائيل

وعلى رأسهم الولايات المتحدة لمعارضة هذا الاقتراح ونجحوا في هزيمته .. وكان ذلك سيفتح الباب على مصراعيه لكل ضحايا الجرائم الإسرائيلية الذين يتمتعون بجنسيات دول أطراف في النظام لملاحقة المسئولين الإسرائيليين أمام العدالة الدولية فهل أفلت حكام إسرائيل من العقاب الدنيوى وآن لهم أن ينعموا بانتصارهم على العدالة الدولية ؟ لا .. ليس بعد .. فهناك بعض النوافذ الصغيرة التي ينبعث منها بصيص من الضوء وأنى أناشد رجال القانون الدولى بالعالم العربى فى دراستها حتى ينبعث منها الضوء الكافى للإيقاع بالمجرمين وإحدى هذه النوافذ هى :

وضع الأردن بالنسبة للضفة الغربية :

فالأردن هى الدولة العربية الوحيدة التى صدقت على النظام الأساسى ويحق لها تحريك الدعوى إذا وقعت الجريمة فى إقليمها.

والثانية هى الوضع القانونى الدولى لقطاع غزة وعلاقته بمصر ..

أما الذى لا مجال للشك فى صلاحيته لإقامة الدعوى فهى سوريا إذا ما انضمت إلى النظام الأساسى فالسيادة

السورية على الجولان ثابتة بالقانون الدولى .. ولا يوجد ما يحول دون مقاضاة المسئولين الإسرائيليين عن جرائمهم فى الجولان سوى انضمام سوريا إلى المحكمة ..

والذى لاشك فيه أنه بمقدور المحكمة الجنائية الدولية أن تمارس إختصاصها تجاه مواطنين دولة ليست طرفا فى النظام الأساسى للمحكمة .

ولقد أكد ذلك المندوب الأمريكى نفسه فقد أعلن السفير شيفير المستشار القانونى لوزارة الخارجية الأمريكية فى بيانه أمام الجلسة الأخيرة للمؤتمر وفى معرض تبريره لمعارضة الولايات المتحدة لها ما يلى :

" أن المحكمة الجنائية الدولية سيكون فى مقدورها ممارسة اختصاصها على الدول غير الأطراف وسيكون ذلك بمثابة انتهاك أساسى لمبدأ قانونى مهم وهو أن الدول لا تلتزم بمعاهدة ليست طرفا فيها" .

وأخيرا فقد نشرت جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٢/٦/٢٤ خبراً مفاده أن مجلس الوزراء الإسرائيلى قرر تحويل مسألة إبعاد عائلات الاستشهاديين إلى وزارة العدل لفحص مدى قانونيتها ، وقال الياكيم روبشتاين المستشار القانونى

للحكومة الإسرائيلية أن هذا الموضوع سيجرى فحصه بحذر شديد فى ظل بدء المحكمة الجنائية الدولية عملها فى لاهاى فى أول يوليو المقبل التى – على حد قوله – " تبحث عنا فى ضوء الشموع " .

وأنى على ثقة أن الشموع لن تظل خافته بل ستتحول قريباً إلى أضواء كاشفة وسيتزايد عدد الباحثين عنكم يا مستر روبنشاتين ويومئذ فلا ملجأ للمجرمين ولا مفر.

(٣)

هل هو حقا من قبيل اللامعقول تقديم قادة إسرائيل إلى المحكمة الجنائية الدولية كمجرمى حرب

كتب السيد موشى زاك بجريدة الجيروزاليم بوست الإسرائيلية مقالاً بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٩٨ بدأه هكذا :

" دعونا نتخيل المنظر " اللامعقول " التالى :

فيينا في / / عام

يصل تيدى كوليك عمدة القدس السابق إلى فيينا مسقط رأسه وموطنه الأصلى ليجد شرطة فيينا فى انتظاره حيث تلقى القبض عليه ويسألهم مندهشاً لماذا ؟ فيأتيه الرد : بناء على طلب الحكومة السورية !!

ولكن ما الذى يأخذه السوريون علىّ ، صحيح أننى عشت قرب حدودهم ما يربو على ستين عاماً عندما كنت عضواً فى كيبوتز عين جيف بالقرب من بحيرة كينيريت وهذا كل ما فى الأمر.

إن الموضوع لا يتعلق بزمن إقامتكم فى عين چيف ولكنه يتعلق بأنشطتكم فى القدس، لقد أعددتم ونفذتم خطة استيطان مائة ألف يهودى فى القدس الشرقية وهذه تعد جريمة حرب وفقاً للنظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية الذى أقره المؤتمر الدبلوماسى العالمى فى روما يوم ١٦ يوليو ١٩٩٨ حيث تقضى المادى ٨ فقرة ٢ (ب) بأنه يعد من جرائم الحرب التى تختص بها المحكمة : قيام الدولة القائمة بالاحتلال بشكل مباشر أو غير مباشر بنقل جزء من سكانها المدنيين إلى الأرض التى تحتلها أو إبعاد أو نقل كل سكان الأرض المحتلة أو أجزاء منهم داخل هذه الأرض أو خارجها.

وبناء على هذه المادة فقد طلبت سوريا تقديمكم للمحاكمة الجنائية الدولية فى لاهاى.

ويرد تيدى كوليك فى هذا الحوار المتخيل بقوله :

هل أنت مجنون أن القدس تحت السيادة الإسرائيلية وليست أرضاً محتلة.

هذا ما تقوله أنت يا سيد كوليك ولكن الأمم المتحدة تعتبر

جميع الأراضى التى احتلت بعد الرابع من يونيو عام ١٩٦٧ أراض محتلة بما فيها القدس الشرقية.

ويمضى الكاتب الإسرائيلى فى مقاله فيقول : إن هذا السيناريو يكاد يكون من المستحيل حدوثه من الناحية الواقعية، إلا أنه من الناحية النظرية يعد احتمالاً قائما بمجرد أن يتم إيداع ستين تصديقاً على النظام الأساسى للمحكمة الجديدة وهو العدد المطلوب لدخوله حيز النفاذ ، ولكننى على ثقة _ هكذا يقول الكاتب الإسرائيلى _ أن أحدا لن يجرؤ على تقديم يهودى للمحاكمة لأنه استوطن جزءاً من " أرض إسرائيل". لا سوريا ولا حتى مصر التى كان وفدها هو صاحب المبادرة فى إدراج هذه المادة فى النظام الأساسى للمحكمة .

وقد كنت عضواً بوفد بلادى لدى مؤتمر روما الدبلوماسى الذى وضع النظام الأساسى للمحكمة وتوليت رئاسة الوفد فى معظم مراحل التفاوض ولى شرف المساهمة فى إدراج هذه المادة فى النظام وهى مأخوذة نصاً من اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ والجديد فى الأمر أنها أصبحت إحدى الجرائم التى تختص بها المحكمة الجنائية الدولية كما أضيف إلى النص

عبارة " بطريقة مباشرة أو غير مباشرة" حتى تشمل عمليات الاستيطان التى تقوم بها جمعيات أهلية بمساعدة غير مباشرة من سلطات الاحتلال والجديد أيضا أن المحكمة الجنائية الدولية تحاكم الأفراد الطبيعيين وليست كمحكمة العدل الدولية التى تختص بالنزاعات بين الدول.

وأنى فى الواقع لا أدرى على أى أساس أقام السيد زاك حجته بعدم معقولية تقديم السيد كوليك للمحكمة الجنائية الدولية ، فالمحكمة تختص بأفعال الأشخاص الطبيعيين والاستيطان مجرم بنص المادة ٨ وكذلك النقل القسرى للسكان أو إبعادهم أو طردهم دون مبررات يسمح بها القانون الدولى..

ونلاحظ أن المحك هنا هو القانون الدولى وليس القانون الإسرائيلى ، لذلك فالقول بأن القدس الشرقية جزء من إسرائيل وخاضعة لسيادتها لا يمكن الاعتداد به فقد جاء فى نص المادة ٢٠ أن القانون الواجب التطبيق هو النظام الأساسى للمحكمة والمعاهدات الدولية ومبادئ القانون الدولى وقواعده.

كما أنه وفقا للنظام الأساسى للمحكمة فإن المسئولية

الجنائية هنا مسئولية فردية حيث تنص المادة ٢٣ (٢) بأن الشخص الذى يرتكب جريمة تدخل فى اختصاص المحكمة يكون مسئولا عنها بصفته الفردية وعرضه للعقاب وفقا لهذا النظام الأساسى " سواء ارتكب هذه الجريمة بمفرده أو بالاشتراك مع آخرين أو عن طريق شخص أخر أو من خلال الأمر أو الإغراء أو الحث على ارتكابها أو تقديم العون والمساعدة لتيسر ارتكابها أو المساهمة بأى طريقة أخرى لارتكاب هذه الجريمة أو الشروع فى ارتكابها.

كما أن أوامر الرؤساء لا تعفى من المسئولية فقد جاء بالمادة ٢٤ الصفة الرسمية للشخص سواء كان رئيساً لدولة أو حكومة أو عضواً فى حكومة أو برلمان .. الخ لا تعفيه من المسئولية الجنائية كما أن أوامر الرؤساء لا تعفى المرؤسين من المسئولية الجنائية ولا يجوز الاعتداد بها كسبب للاعفاء منها.

أما الذى يعفى السيد كوليك (وأود أن أسجل هنا أن السيد كوليك الذى ينتمى إلى حمائم حزب العمل ليس هو المقصود بذاته فقد يكون السيد بالمر العمدة الحالى للقدس وسائر المتطرفين الصهاينة أكثر انغماساً فى هذه الجرائم

وأكثر عرضة للمساءلة الجنائية الدولية) وأعود إلى السياق فأقول : إن الذى يعفى من المثول أمام المحكمة الجنائية الدولية فهى المادة ٢٢ الخاصة " بعدم الرجعية " وهى من نقاط الضعف فى النظام الأساسى والتى وضعت كنتيجة للمساومات العديدة فى عمليات التفاوض.. والتى تقضى بأنه "لا يسأل الشخص جنائياً بموجب هذا النظام الأساسى عن سلوك سابق لبدء نفاذ النظام"..

أما وقد استمر هذا السلوك الاستيطانى بعد دخول النظام الأساسى حيز النفاذ فلا أرى عدم معقولية فى تحريك الدعوى ضد مرتكبى هذه الأفعال - فإن توجد محكمة جنائية دولية .. وإن تكون جريمة الاستيطان إحدى الجرائم التى تختص بها.. وأن ترتكب هذه الجريمة بعد بدء المحكمة لأعمالها .. وإلا يوجد من يحرك الدعوى ضد مرتكبى هذه الجريمة .. فهذا هو اللامعقول بعينه يا سيد زالك .

وهناك أغنية من الفلكلور اليهودى الثرى شهيرة تقول فى بعض مقاطعها:

هناك زمن للحب

وهناك زمن للحرب

وهناك زمن للسلم

وهناك زمن للحياة

وهناك زمن للموت

وأنا أقول للسيد زاك بأن هناك زمن للمثول أمام المحكمة الجنائية الدولية وهو زمن ليس ببعيد ولا غير معقول،

(٤)

المكسيك تعترض .. !!

في ديسمبر عام ١٩٩٨ وأثناء نظر القضية الفلسطينية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فاجأ ممثل المكسيك الدول الأعضاء ببيان ذكر فيه أن المكسيك بالرغم من علمها بأن أساس التفاهم الذى تقوم عليه عملية السلام فى الشرق الأوسط وهو تبادل الأرض مقابل السلام وأن هذه الصيغة قد أثبتت فائدتها فى محاولات البحث عن حلول للمشاكل القائمة ، إلا أنه من الخطورة بمكان إقرار هذا المبدأ كمبدأ قانونى عالمى يطبق على جميع النزاعات، لأن ذلك يتعارض مع مبادئ القانون الدولى التى من بينها أن الغزو لا يرتب حقوقاً إقليمية، ومبدأ عدم جواز الاستيلاء على أراضى عن طريق القوة ، ويترتب على هذه المبادئ الأساسية أن نستخلص أن الأراضى التى تحتل نتيجة لنزاع مسلح يجب أن تعاد بأكملها إلى أصحابها الشرعيين دون أى شروط.

وإختتم مندوب المكسيك بيانه بالمطالبة بالتزام الدقة اللغوية

عندما نشير إلى هذا التفاهم السياسى " الأرض مقابل السلام" الذى لا يمكن ولا يجب أن يتحول إلى مبدأ قانونى عالمى.

وسبحان مغير الأحوال ، فعلى أثر عدوان عام ١٩٦٧ كان الموقف العربى هو وجوب عدم مكافأة المعتدى على اعتدائه وعلى ذلك فلا يجب أن يكون للانسحاب أى ثمن _ أى الأرض مقابل لا شئ ، ومن هذا المنطلق رفض الجانب العربى المشروع الذى تقدمت به المجموعة اللاتينية ومن بينها المكسيك الذى كان يقوم على أساس الأرض مقابل إنهاء حالة الحرب، ثم قبلنا مبدأ الأرض مقابل السلام، ثم السلام والعلاقات والتطبيع ، والجدير بالذكر أن " الأرض مقابل السلام" كان مطلبا إسرائيليا ولكن بمرور الأيام أصبح المطلب الإسرائيلى الذى قبله العرب على مضض مطلباً عربيا تحاول إسرائيل الآن التنصل منه واستبداله بمبدأ جديد هو الأرض مقابل الأمن.

ويقول الصديق الزميل الدكتور نبيل العربى القاضى بمحكمة العدل الدولية : إنه وفقا للقانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة ، فإن الانسحاب من الأراضى التى تحتل بالقوة

ويحب ان يتم دون شروط وبالرغم من قبول مصر وبعض الدول الأخرى الراغبة فى إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل واستعادة أراضيها المحتلة مقايضة الأرض مقابل إقامة علاقات سلام طبيعية ، فإن هذا المفهوم لا يمكن أن يكتسب قوة قانونية على المستوى العالمى ولا حتى بين الدول التى طبقته ، إلا فى نطاق تطبيق تلك الاتفاقيات التى أشارت إليه. فالأصل يظل الانسحاب غير المشروط الذى يجب الالتزام به فى أية نزاعات مقبلة ينتج عنها احتلال أراضى.

(٥)
مناهضة التعذيب والمعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة

عندما انتخبت عضواً فى لجنة الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب والمعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة والتى تعرف اختصاراً باسم الكات (Committee Against Torture C.A.T) وأخذت أقرأ عن الموضوع إعداداً لنفسى لهذه المهمة وجدت أن تاريخ التعذيب ضارب فى القدم.. فقد كان شيئاً مشروعاً فى العصور القديمة وقد أدهشنى أن قرأت أن فيلسوفاً مثل أرسطو اعتبره أحد الوسائل الخمس المشروعة للحصول على أدلة ، أما الأربع الباقية فهى القانون والعرف والشهود واليمين ، ويجيز أرسطو ممارسة التعذيب ضد الأجانب والعبيد المتهمين بارتكاب جرائم كما يجيزه ضد المواطنين فى حالة واحدة فقط وهى حالة الخيانة العظمى.

هذا بالنسبة للإغريق أما بالنسبة للرومان فقد تم تضمينه

فى التشريع الرومانى وعرفه أحد القانونيين الرومان بأنه : "البحث عن الحقيقة باستعمال الألم والمعاناة الجسدية".

وقد ظل التعذيب جزءاً من القانون الرومانى حتى العصور المتأخرة .. أى حتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادى حيث اعتبره القانونيون ورجال الكنيسة فى معظم الدول الأوروبية كوسيلة قانونية للحصول على بيانات من المتهم، ولم تبدأ الحركة الجدية في أوروبا لمناهضة التعذيب إلا مع بداية القرن التاسع عشر ، وقد هالني ما قرأت حول تقنين تعذيب الإنسان فأين ذلك من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض». هذا الزجر القوى عن تعذيب الحيوان ناهيك عن الإنسان، وقد سارت المسيرة الإنسانية فى كفاحها ضد ممارسة التعذيب باعتباره أبشع صور انتهاكات حقوق الإنسان حتى أمكن تحريم التعذيب تحريما قاطعاً فى القانون الدولى وبصفة خاصة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى ينص فى مادته الخامسة على أنه :" لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الماسة بالكرامة.

وتأتى اتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة على رأس آليات مكافحة التعذيب

وقد جاءت البدايات الأولى عام ١٩٦١ عندما وضعت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة مبادئ تنظم معاملة الأشخاص المقبوض عليهم وتطالب الدول باصدار قوانين تحرم جميع انتهكات هذه المبادئ ، ثم اعتمدت الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٩ مدونة قواعد تحكم سلوك الموظفين المكلفين بتنفيذ القوانين تتضمن تحريم قيام هؤلاء الموظفين بأى عمل من أعمال التعذيب أو التحريض على ذلك أو التغاضى عنه .. مما مهد الطريق أمام الأمم المتحدة لإبرام الاتفاقية الدولية لمناهضة التعذيب والتى دخلت حيز التنفيذ فى ٢٦ يونيو ١٩٨٦ هو اليوم الذى اعتمد كيوم عالمى لمناهضة التعذيب.

ولعل من أهم ما جاءت به الاتفاقية هو النص على تعريف محدد للتعذيب (المادة الأولى) والمطالبة بإدراجها كجريمة قائمة بذاتها فى القانون الداخلى (المادة الرابعة). ومن خلال خبرتى بلجنة مناهضة التعذيب فإننى استطيع أن أقول أن

معظم دول العالم ـ بما فى ذلك الدول ذات الأنظمة القانونية المتطورة – لا زالت محل انتقاد من اللجنة إما لعدم إدراجها للتعذيب كجريمة قائمة بذاتها وإما لعدم تمشى التعريف مع التعريف الوارد فى الاتفاقية ، والتعريف الوارد فى الاتفاقية لا يكتفى بوصف الأعمال التى تعد من قبل التعذيب بل يضيف إليها شرطاً آخر وهو أن يكون الباعث هو الحصول على معلومات أو اعتراف أو العقاب أو الترويع ولأسباب عنصرية.

والشرط الثالث : أن تكون هذه الأعمال قد ارتكبت بواسطة موظف عام ارتكبها بنفسه أو حرض عليها أو سكت عنها.

وتنص الاتفاقية أيضاً على أنه :

" لا شئ على الإطلاق يبرر اللجوء إلى التعذيب .. لا أوامر الرؤساء ولا الظروف الاستثنائية أياً كانت سواء كانت حالة حرب أو قلاقل داخلية (المادة الثانية من الاتفاقية) وأذكر أن إسرائيل عندما قدمت تقريرها الدورى الثالث للجنة حاولت تبرير ما اسمته " الضغط الجسدى المعتدل Moderate Physical Pressureعند استجواب العناصر التى

تعتبرها إرهابية إلا أن اللجنة رفضت ذلك فى مايو ١٩٩٧ واعتبرت هذا العمل خرقاً للاتفاقية وطالبتها بوقف هذه الممارسات فوراً.

وتنعقد الولاية القضائية للدولة عند ارتكاب جريمة التعذيب في إقليمها أو عندما يكون مرتكب الجريمة من مواطنيها أو عندما يكون المعتدى عليه من مواطنيها.

وللدولة الحق فى احتجاز أى شخص أجنبى يوجد على أراضيها ويدعى أنه اقترف جرما طبقا لهذه الاتفاقية وذلك لدى اقتناعها بأن هناك مبررات لاحتجازه وفقا للبيانات التى توافرت لديها ، وتتولى إجراء التحقيق معه ثم إما محاكمته أو تسليمه إلى الدولة التى تطالب بتسليمه .

وبناء على هذه الاتفاقية طالبت أسبانيا بريطانيا بتسليمها " بينوشيه" رئيس جمهورية شيلى السابق والذى كان يزور بريطانيا لمحاكمته فى جرائم تعذيب مورست ضد مواطنين أسبان (مزدوجى الجنسية الأسبانية والشيلية) .. وكاد النزاع يصل إلى محكمة العدل الدولية وفقا للمادة ٣٠ من الاتفاقية إلا أن بريطانيا اضطرت لإعادته إلى شيلى بعد صدور تقرير طبى يفيد بأن حالته الصحية لا تسمح بالمحاكمة.

الاعتراف وهل هو سيد الأدلة :

هذه المقولة الشهيرة التي احتلت الصدارة في ميدان القضاء وجرت على ألسنة الناس مجرى الحكم والأمثال قد بدأت تفقد سحرها بل بدأت أصابع الاتهام توجه إليها باعتبارها أحد الدوافع على ارتكاب جريمة التعذيب وصولاً إلى الاعتراف الذي هو سيد الأدلة ، لذلك يطالب البعض بعدم الاعتداد بأي اعتراف خارج المحكمة .

وفي حوارات لجنة مناهضة التعذيب مع ممثلي الدول الأعضاء كثيراً ما يتم التركيز على الإقلال من أهمية الاعتراف والتركيز على وسائل الإثبات الأخرى خاصة في العصر الحالي الذي تقدمت فيه الوسائل التكنولوجية _ لأن ثقافة الاعتراف ومقولة أنه سيد الأدلة والضغط الذي يتولد على أجهزة الأمن للعثور على جاني تغري البعض أحيانا إلى اللجوء إلى العنف لاستخراج " اعتراف ".

ولعل من أهم وسائل مكافحة التعذيب هو التزام الدولة بمعاقبة مرتكبي هذه الجرائم ومكافحة ظاهرة الإفلات من العقوبة .

وعندما نظرت اللجنة في التقرير المقدم من مصر حول

تطبيق هذه الاتفاقية كان من أهم نقاط الضعف فى نظامنا القانونى هو أن قانون الاجراءات القضائية ينص على أنه " لا جريمة إذا وقع الفعل من موظف أميرى أو ارتكبه تنفيذاً لأمر صادر إليه من رئيس وجبت عليه طاعته .".

وهو ما يتعارض مع المادة (٢) من الاتفاقية التى تنص على أن أوامر الرؤساء لا تعفى من المسئولية، وقد واجه التقرير المصرى هذه المشكلة ببيان أن المادة ١٢٦ من قانون العقوبات تنص صراحة على تجريم التعذيب الحاصل بأمر صادر من موظف عام ويعتبر السكوت على التعذيب أمراً بارتكابه ومن ثم فإنه وفقا للقانون المصرى يكون الامر بالتعذيب والقائم به تنفيذاً للأوامر مرتكبى لجريمة التعذيب.

وأشار التقرير إلى أحكام لمحكمة النقض فى هذا الصدد منها:

أن طاعة الرئيس لا ينبغى بأية حال أن تمتد إلى ارتكاب الجرائم .

التعذيب والإرهاب :

تقضى الاتفاقية بعدم جواز التذرع بأية ظروف استثنائية

لتبرير التعذيب ، وعلى ذلك فالإرهاب لا يبرر التعذيب لأن الجريمة لا تبرر الجريمة ، إلا أن كثيراً من الدول بما فيها مصر تدرج الإرهاب كأحد المصاعب التى تواجه تطبيق الاتفاقية فى مصر ولكننى اعتقد أن أهم المعوقات التى تواجه تطبيق الاتفاقية فى مصر بل أهم المعوقات فى سبيل كفالة حقوق الإنسان فى مصر بوجه عام .. هى الأمية وذلك لتأثيرها بشكل مباشر على جميع الإجراءات المتصلة بالتحقيق والمحاكمة ولا شك فى أن المواطن القادر على فهم حقوقه هو أفضل ضمانة لمكافحة انتهاك حقوق الإنسان.

وأخيراً فمن المؤسف أن الهجمات الإرهابية التى تعرضت لها الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد أدت إلى تقهقر حقوق الإنسان فى العالم أجمع لعقود من الزمان وأضاعت قدراً كثيرا من الانجازات التى حققتها البشرية فى هذا المجال خلال العقود الخمسة الأخيرة من القرن الماضى.

(٦)

حتى ولو لم يكن مصريا !!

نشرت الصحف فى ديسمبر ٢٠٠١ الخبر التالى :

سلمت اليوم ١٢ ديسمبر ٢٠٠١ السلطات الهولندية مواطنا مصريا إلى مصر وفور وصوله أبلغ السلطات المصرية أن حراسة الهولنديين اعتدوا عليه بالضرب المبرح، وقد احتجزت السلطات المصرية الحراس الهولنديين وأجرت معهم تحقيقا بعد أن اتضح إن المواطن المصرى مصابا برضوض وكدمات واشتباه فى كسر بالذارع ، إلا أن السلطات المصرية عادت وأفرجت عن الحراس الهولنديين وذكر مصدر بمكتب النائب العام أن واقعة الاعتداء على المواطن المصرى تمت إما فى الأراضى الهولندية أو على متن الطائرة الهولندية التى أقلته إلى مصر وعلى ذلك فالجريمة وقعت خارج الأراضى المصرية وليست للسلطات المصرية اختصاص فى شأنها".

إلى هنا ينتهى الخبر ، وأبادر إلى القول بأنه يصعب علىّ أن اصدق أن مثل هذا البيان قد صدر من مكتب النائب العام

أو أى جهة قضائية أو قانونية فى مصر، فمصر طرف من أطراف اتفاقية الأمم المتحدة لمناقضة التعذيب والمعاملة القاسية أو للإنسانية أو المهينة والتى دخلت حيز التنفيذ فى ٢٦ يونيو ١٩٨٧، وقد قامت مصر بإبلاغ الأمم المتحدة بأن هذه الاتفاقية برمتها أصبحت قانوناً سارياً فى البلاد بعد نشرها بالجريدة الرسمية عملا بالمادة ١٥١ من الدستور.

ولا تقتصر هذه الاتفاقية على التزام الدول باتخاذ جميع الإجراءات لمنع أعمال التعذيب فى أراضيها (المادة ٢) بل تلزم الدول أيضا بأن تحول دون وقع ممارسات أخرى من صنوف المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة والتى قد لا تصل إلى حد التعذيب (المادة ١٦).

وقد اعتبرت محكمة النقض المصرية أن ركن القسوة يتحقق بكل فعل مادى من شأنه أن يحدث ألما ببدن المجنى عليه مهما يكن الألم خفيفا ولو لم يترتب على الفعل حدوث إصابات ظاهرة فيشمل ذلك الضرب كما يشمل الإيذاء الخفيف (جلسة ١٩٥٢/٤/١٤) ومن ناحية أخرى فقد أخذت هذه الاتفاقية بمبدأ الاختصاص العالمى وعلى ذلك فإن مصر مطالبة بأن تقيم ولايتها القضائية على تلك الجرائم فى

الحالات التالية:

١- عندما يكون مرتكب الجريمة مصريا .

٢- عندما يكون المجنى عليه مصريا .

٣- أو إذا ارتكبت الجريمة في الأراضى المصرية أو على ظهر سفينة أو على متن طائرة مسجلة في مصر .

وفى حالتنا هذه فالمجنى عليه مصريا ..

وعلى ذلك فإن ولاية مصر القضائية ليس لها منازع خاصة أن المتهم بارتكاب الجريمة كان موجوداً بالأراضى المصرية ولم يكن من حق مصر أن تمارس ولايتها القضائية تجاهه فحسب بل كان ذلك واجبا عليها فالمادة الخامسة (٢) من الاتفاقية تقضى بأن :

تتخذ كل دولة ما يلزم من الاجراءات لإقامة ولايتها القضائية فى الحالات التى يكون فيها المتهم بارتكاب الجريمة موجوداً فى أراضيها.

ولما كان المتهم موجوداً بأراضيها .. والمجنى عليه من مواطنينا فإن الولاية تنعقد لمصر بغض النظر عما إذا كان الاعتداء قد حدث فى الأراضى الهولندية أو على متن الطائرة

الهولندية فالاتفاقية صريحة كما أسلفنا في إقامة الولاية القضائية إذا كان المجنى عليه من مواطنيها .

بل إنه لو فرضنا جدلا أن هؤلاء الحراس الهولنديون قد تمكنوا من الهرب من مصر فإن هولندا ملتزمة بتسليمهم إلى مصر .

حيث أنه وفقا للمادة ٨ فقرة (٤) تتم معاملة هذه الجرائم _ لأغراض التسليم _ كما لو أنها اقترفت لا في المكان الذى حدثت فيه فحسب ، بل في أراضي الدولة المطالبة بإقامة ولايتها القضائية.

والآن .. لو فرضنا أن الحراس الهولنديون كانوا يصطحبون مواطنا إندونيسيا " وليس مصريا" وفى طريقهم لتسليمه إلى اندونيسيا توقفت الطائرة الهولندية التى تقلهم بمطار القاهرة حيث تمكن المواطن الإندونيسى من إبلاغ السلطات المصرية أنه تعرض للضرب المبرح والمعاملة القاسية من قبل حراسه مما أدى إلى كسر ذراعه.. فهل لمصر اختصاص قضائى فى هذه الحالة ؟ الإجابة طبعا بنعم .. فإن مصر عليها فى هذه الحالة أن تقوم فورا بإجراء التحقيق الأولى فيما يتعلق بالوقائع وأن تخطر هولندا باحتجاز

مـواطنيـها وبالظروف التى تبرر اعتقـالهم ويكون أمامـها فى هذه الحالة خياران اثنين فقط..

أما أن تعرض القضية على سلطاتها المختصة بقصد تقديم المتهمين للمحاكمة

أو تقوم بتسليمهم إلى الدولة المطالبة بإقامة ولايتها القضائية .

هذا إن كان المجنى عليه إندونيسيا .. أما إذا كان مصريا بالخيار واحد لا ثاني له..

الفصل التاسع :

حكايات المقهى الدبلوماسى

١ - نادى القهوة ونادى الشاى فى مجلس الأمن
٢ - جحا وبنت السلطان
٣ - وحكايات عثمانية
٤ - وحكاية من الجزائر
٥ - الرئيس يتساءل : هل علمتم لماذا أنا عميل فرنسى !!

(١)
نادى القهوة ونادى الشاى في مجلس الأمن

الذى يطلع على وثائق وزارة الخارجية.. أى وزارة خارجية فى العالم قد يدهشه وجود وثائق بعنوان «اجتماع» نادى القهوة صباح اليوم بمقر البعثة».. أو سيجد برقية من سفير فى إحدى العواصم يشير فيها إلى أن سفير إيطاليا دعاه لحضور اجتماع نادى القهوة يوم كذا - ويطلب السفير موافاته بتعليمات عن موقف بلاده من الموضوعات التى سيناقشها الاجتماع..

وقد تذكرت هذا النادى واجتماعاته وأنا أراقب بإعجاب شديد ممزوج بالأسف مواقف ألمانيا الشجاعة والمستقلة أثناء بحث قضية العراق فى فبراير ٢٠٠٣ فى مجلس الأمن التى تصدت فيها للولايات المتحدة وبريطانيا.. فأما الإعجاب فهو لايحتاج إلى شرح وأما الأسف فهو ما سأحاول تبيان أسبابه فى السطور التالية:

ففي أواخر التسعينيات تكونت في الأمم المتحدة مجموعة من الدول من أجل محاولة الاتفاق على أسس توسيع العضوية بمجلس الأمن وإصلاح أسلوب عمله بما في ذلك طريقة التصويت والامتياز الممنوح للدول دائمة العضوية (الفيتو).

وعندما بدأ الحديث يدور حول هذا الموضوع وبدأت الاقتراحات تتوالى من مجموعات الدول المختلفة.. سارعت الولايات المتحدة - وكانت في ذلك الوقت تتهيأ لتضع فوق رأسها تاج القطب الأوحد - سارعت بإعطاء إيماءة بالموافقة على زيادة عدد الدول الدائمة بالمجلس وغير الدائمة وذلك بشروط عديدة منها:

- أن تكون الدول الدائمة الجديدة ثلاث فقط منهم ألمانيا واليابان.

- ألا يزيد العدد الكلي للمجلس على ٢١ عضوا (أي زيادة قدرها ستة أعضاء من العدد الحالي).

واستاءت الدول النامية من هذا التوجه، فبعد مرور خمسين عاماً على إنشاء الأمم المتحدة وتكوين مجلس الأمن الذي منحت فيه الدول المنتصرة في الحرب لنفسها وضعاً

مميزاً بحق الفيتو وبالعضوية الدائمة وبأسلوب العمل غير الديمقراطي والبعيد عن الشفافية.. بعد مرور كل هذه المدة وبعد أن تغير العالم جذرياً عن عالم عام ١٩٤٥ وجدت الدول النامية أن اقتراح الإصلاح المقدم من الولايات المتحدة يزيد من عدم التوازن وسيجعل التوزيع الجغرافي غير العادل أصلاً أكثر ظلماً إذ سيضيف إلى قوى الفيتو دولتين من التحالف الغربي تأتمران بأمر الولايات المتحدة وسيجعل قارة واحدة هي أوروبا تتمتع بأربعة مقاعد تملك حق الفيتو هي فرنسا والمملكة المتحدة وألمانيا وروسيا.

وعندما بدأ الشد والجذب وحمى الوطيس في أروقة الأمم المتحدة.. وانهالت الاقتراحات من كل جانب واتسع نطاقها بحيث أصبحت هنالك مقترحات تطالب بتحجيم الفيتو تمهيداً لإلغائه وذلك باشتراط تصويت دولتين ممن يملكون حق الفيتو لكي يمتنع صدور القرار (وليس دولة واحدة كما هو الحال حالياً)، كم كان هناك اقتراح آخر بألا يسمح باستخدام الفيتو في إلا في موضوعات محددة يتم الاتفاق عليها وتدرج في قائمة (يلاحظ هنا أن أمريكا سبق لها استخدام الفيتو في

موضوع إجرائى هو إعادة انتخاب الدكتور بطرس غالى لفترة ثانية).

أقول عندما تطورت الأمور على هذا النحو.. سارع شرطى المرور (الولايات المتحدة) بإطلاق صفارته فتوقف الجميع ملتفتين ليسمعوا الولايات المتحدة تقول : إننا لن نصل إلى أى مكان فى ظل هذا الوضع ولذلك فلدينا اقتراح يخرجنا من هذه الورطة وهو الـ Quick Fix أى بالعامية المصرية «تلصيمة» سريعة مؤقتة لحين اتمام الإصلاح الشامل الذى من الواضح أنه سيأخذ وقتاً طويلاً وهذه «التلصيمة» هى زيادة عدد الدول دائمة العضوية وصاحبة حق الفيتو من خمسة إلى سبعة ومنح هذين المقعدين الجديدين لألمانيا واليابان.. وبعد ذلك نتحدث كما تشاءون فى كل الأمور الأخرى.. وكان المنطق وراء هذا الاقتراح منطقاً قوياً فاليابان وألمانيا هما الحقيقتان الساطعتان فى عالم اليوم ولا أحد يستطيع تجاهل هذه الحقيقة، وأن وجودهما الدائم بمجلس الأمن يصحح كثيراً من الخلل لأنه يعكس بالفعل القوى الحقيقية فى العالم.

كانت الدولة التى استشاطت غضباً من هذا الاقتراح هى

إيطاليا لأن إنضمام ألمانيا إلى مجموعة الدول الكبرى دائمة العضوية بالمجلس إلى جانب فرنسا وبريطانيا يجعل إيطاليا التى كانت زميلة ألمانيا فى المحور أثناء الحرب تنزوى إلى فئة الدول الأقل درجة ونفوذاً، فإيطاليا تعتبر نفسها من الدول الأربع الكبرى فى أوروبا.. بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا .. وهى الدول التى تقود الاتحاد الأوروبى الآن.. والتى تشكل أكثر من نصف الدول الصناعية السبع الكبرى فى العالم .. وإذا كانت قد قبلت تميز بريطانيا وفرنسا عنها وعن ألمانيا فإن ذلك كان النتيجة الطبيعة لهزيمة المحور فى الحرب العالمة الثانية.. أما أن تنضم ألمانيا وتترك هى فى العراء فلا.. وانبرت إيطاليا لتقود حملة مواجهة كالحرب الضروس فى الأمم المتحدة ووجدت آذنا صاغية فى دول العالم الثالث، وقد قاد هذه الحملة باقتدار مندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة السفير فينشى الذى جمع لديه عدداً من ممثلى الدول النامية والمتجانسة التفكير على فنجان من القهوة لتدارس الأمر.. وقد وجد المجتمعون أن لديهم عناصراتفاق عديدة فقرروا مواصلة الاجتماعات حتى يتم بلورة خطة واستراتيجية التنفيذ والتحرك ولكن ما يطلقون على مجموعتهم هذه التى تضم دول

من مختلف القارات ودرجات النمو.. ولم يطل تفكيرهم فقد وافقوا فوراً على اقتراح أحدهم بأن يطلق على تجمعهم هذا اسم نادى القهوة Coffee Club فهو مسمى محايد ومرن ويسمح بانضمام أى دولة إليه دون مشكلة.

نشط هذا النادى واتسعت عضويته ودامت المعركة سنين طوال من منتصف التسعينيات حتى بداية القرن الجديد حتى تبين للجميع استحالة تنفيذ أى اقتراح من الاقتراحات العديدة المطروحة بما فيها الـ Quick Fix ولذلك نحيت جميع الاقتراحات جانباً وظل الوضع على ماهو عليه.

تذكرت هذه الخواطر وأنا أتابع مواقف ألمانيا فى مجلس الأمن من قضية العراق ومواقفها القوية التى تتنبأ بانتهاء عصر ما كان يسمى بالقزم العملاق.. أى القزم السياسى والعملاق الاقتصادى وأعتقد أنه لو حاولت إيطاليا الآن تنشيط اجتماعات نادى القهوة فستجد قليلين على استعداد لتلبية الدعوة بل قد ينضم بعضهم إلى نادى الشاى الذى حاولت ألمانيا تشكيله لمجموعة الدول التى تؤيد وجهة نظرها فى إصلاح وتوسيع مجلس الأمن..

(٢)

جحا وبنت السلطان فى مناقشات نزع السلاح بالأمم المتحدة

السفير جميل البارودى اللبنانى الأصل ممثل السعودية لدى الأمم المتحدة منذ نشأتها حتى أواخر السبعينات شخصية فذة وغير قابلة للتكرار.. كانت السعودية فى ذلك الوقت تفتقر إلى الكوادر الدبلوماسية القادرة على تولى مهمة معقدة مثل الأمم المتحدة لذلك أوكلت هذه المهمة إلى البارودى وتركت له العنان يتصرف كيف يشاء بلا تعليمات فكان البارودى يتنقل من لجنة إلى لجنة من لجان الأمم المتحدة ويتحدث فيها بحرية تامة وبما يعتقده هو .. وبدون سابق تحضير ولا إعداد معتمدا على ثقافته الواسعة وعلمه الغزير بالتاريخ على وجه الخصوص.. إلا أنه كانت تعوزه المهارة الدبلوماسية والحرفية اللازمة فى مثل هذه الأمور.

دخل علينا مرة فى لجنة تصفية الاستعمار وتساءل: " شو عم تبحثوا يا شباب ؟ " .. قلنا: ممثل فريليمو التى هى حركة

تحرير موزمبيق يتحدث الآن، فظن أن موزمبيق قد غيرت اسمها إلى فريليمو .. حيث أقدم الكثير من الدول الأفريقية على تغيير أسمائها والعودة إلى الأسماء الأصلية قبل الاستعمار.. مثل ساحل الذهب التى أصبحت غانا ومثل روديسيا الشمالية التى أصبحت زامبيا ومثل نياسالاند التى أصبحت مالاوى .. فتحمس البارودى وقال : إنه يعرف البرتغاليين وفظائعهم إنهم أكثر الدول تخلفا فى أوروبا وجابين على الأفارقة المساكين وعاملين عليهم سادة، ورفع اصبعه قبل أن يجلس طالبا الكلمة مطالبا بتحرير فريليمو.. وإذا ما نحينا الخطأ فى اسم الدولة.. فقد كانت كلمته بإنجليزيته الراقية حيث لم تكن اللغة العربية قد دخلت إلى الأمم المتحدة بعد. كانت كلمة جيدة مثيرة للاهتمام إلا أنها تتناول الأصول والعموميات وليس دقائق الموضوع.

رأيته مرة خارجا من اجتماع اللجنة الأولى (السياسية) غاضبا يلعن النفاق.. فقد كانت حوالى سبعين دولة من دول عدم الانحياز قد تقدمت بمشروع قرار فى إطار البند الخاص بنزع السلاح بشأن نزع السلاح النووى وطلبوا منه التوقيع عليه كمتبنى له باعتبار السعودية عضوا بالحركة وكان

المشروع مرفوضا من كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.. فدخل البارودى رحمه الله إلى القاعة وطلب الكلمة وقال : إن لدينا شخصية فلسفية ضاحكة فى ثقافتنا العربية هى جحا.. وقد خرج جحا يوما من بيته متجها إلى قصر السلطان.. فقيل له : إلى أين أنت ذاهب يا سيد جحا ؟ قال: لكى أخطب بنت السلطان ، فقيل له: هل جننت ؟ فقال: لا. فالأغلبية موافقة.. أبى وأمى وجميع أخوتى موافقون ولم يبق إلا السلطان وبنته !!

فكذلك نزع السلاح النووى.. جميع دول العالم الثالث موافقة ولم يبق إلا أمريكا والاتحاد السوفييتى !! ولا ينقصكم إلا توقيع السعودية ؟!

(٣)

وحكايات عثمانية

أثناء فترة الاستراحة بين جلسات المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى «باماكو» عاصمة مالى فى يونيو ٢٠٠١ التقيت على الغذاء مع صديقى القديم السفير التركى ووزير خارجية تركيا فيما بعد بشار ياكش الذى جمعتنى معه الظروف أكثر من مرة وتدعمت خلالها صداقتنا فقد كنا سفراء لبلدينا (مصر وتركيا) فى الرياض ولكن معرفتى به بدأت منذ منتصف الثمانينات عندما كنا نحضر سويا اجتماعات لجنة الكومسيك فى استنبول ، ثم بعد ذلك جاء ياكش سفيرا لتركيا فى مصر عندما كنت أشغل منصب مساعد وزير الخارجية، وها أنا التقى به مرة أخرى فى باماكو عاصمة مالى..

كنا أربعة أصدقاء على مائدة الطعام حيث شاركنا الغذاء السفير نابيكا ديالو من غينيا والسفير خالد سليم من باكستان.. وتطرق الحديث إلى لغة الأردو ومدى اتصالها باللغة التركية.. فقال صديقى التركى أن كلمة أوردو نفسها

كلمة تركية وتعني الجيش لأن هذه اللغة نشأت في معسكرات الجيش التي كانت تجمع جنودا من مناطق مختلفة اللغات فأدت الحاجة إلى وجود لغة للتفاهم إلى نشوء لغة الأوردو التي هي خليط من التركية والفارسية والسنسكرتيتة، ثم تطرق الحديث إلى السعودية والصلات مع تركيا وسأل سائل حول الأصول التركية للملكة عفت زوجة الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.. فقال : إن القصة تبدأ بالحملة التي أرسلها السلطان العثماني إلى نجد للقضاء على التمرد الوهابي هناك بقيادة إبراهيم باشا الذي قضى على التمرد بوحشية بالغة وتعامل مع رئيس التمرد وفقا للتقليد العثماني في ذلك الوقت وهو أخذه أسيرا وإرساله إلى عاصمة الخلافة.. وهكذا وجد الشيخ الثنيان نفسه في استنبول وعاش فيها ما قدر الله له أن يعيش وتزوج من امرأة تركية وأنجب أولادا وأحفادا.. ومرت الأيام ومع بداية القرن العشرين خرج الشاب المطرود من الرياض هو وأسرته عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود من منفاه في الكويت مع عشرين رجلا من أفراد أسرته وتابعيهم متجها إلى الرياض التي استطاع اقتحامها ليلا وقتل أميرها المغتصب وأخذ البيعة في المسجد

مع صلاة الظهر.. ثم توالت الانتصارات حتى سيطر على معظم أراضى الجزيرة العربية وطرد الشريف حسين من مكة وأقام مملكة على ما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية .. وعلم آل الثنيان المنفيين فى تركيا بذلك فكتبوا له لكى يدرك أقاربه الذين يعانون شظف العيش فى تركيا.

تذكر عبد العزيز هذه الرسالة عندما قرر تعيين ابنه فيصل سفيرا لدى الدول الكبرى الأربعة فى ذلك الوقت.. بريطانيا وفرنسا وألمانيا وتركيا.. وطلب منه زيارة آل الثنيان والإطلاع على أحوالهم عندما يذهب إلى تركيا.. نفذ فيصل الوصية.. حيث علم أن حفيد الثنيان مات عن زوجة (تركية) وخمسة أبناء.. وأن الزوجة اضطرت إلى الزواج لكى تجد الرعاية والحماية (من تركى يدعى أدهم) كان يعمل فى البريد وأنجبت منه (كمال أدهم) .. ورأى فيصل بين الأبناء عفت الفتاة الجميلة التى تجرى فى عروقها الدماء العربية والتركية وقرر على الفور عرض الزواج عليها.. وبالرغم من حالتهم المتواضعة فلم تسارع الفتاة فى القبول بلا شروط بل قالت : أريد أن اشترط أن تطلق أى زوجات قد يكن فى عصمتك وأن تتعهد بعدم الزواج علىّ.. وقبل الأمير الشاب

وقرر اصطحابها إلى بلاده حتى يستأذن والده وسافرا بالباخرة مرورا بقناة السويس وتزوجا فى بورسعيد.. آخر الموانىء قبل الدخول إلى جدة.

يقول السفير التركى ياشار ياكش أنه تحقق من صحة هذه الوقائع من مصادرها الأصلية.. من الملكة عفت نفسها.. فهى لصلة القرابة مع الأتراك كانت حريصة على السفر والإقامة فى استنبول فى كل عام وكانت على صلة دائمة بالسفارة التركية.. والجالية التركية.. ويقول ياكش أنه عندما ذهبت زوجته لزيارتها زيارة المجاملة الأولى .. قامت الملكة عفت _ فى تقليد غير مألوف _ برد الزيارة بنفسها لزوجة السفير التركى. ويقول : إنه طلب من زوجته أن تقص عليها هذه القصة التى قرأناها جميعا وسمعناها كثيرا وتسألها عن مدى صحتها .. فقالت كلها صحيحة وبكل تفاصيلها.

(٤)

وحكاية من الجزائر

حدثنى الصديق أحمد الغزالى الذى كان وزيرا سابقا فى حكومة الجزائر وواليا لمحافظة عنابا ومن مجاهدى جبهة التحرير الجزائرية ، أنه فى عام ١٩٤٩ قرر الطلبة الجزائريون الذين يدرسون فى القاهرة أن يشكلوا وفدا لزيارة الجامعة العربية لطلب المعونة المادية حيث أن المخصصات المالية التى تمنحها الحكومة المصرية لهم وهى جنيهان مصريان شهريا لم تعد تكفى للمعيشة وكان الوفد برئاسة مولود قاسم الذى أصبح فيما بعد وزيرا للشئون الدينية وكان يضم من بين أعضائه الطالب هوارى بومدين والطالب أحمد أبو طالب الإبراهيمى.

وقد كلف عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية فى ذلك الوقت مدير مكتبه بمقابلة الوفد، وعندما دخل الوفد على مدير المكتب بدأ الطالب مولود قاسم فى إلقاء كلمة شرح فيها أوضاع الجزائر والأعمال الفظيعة التى يقوم بها الاستعمار

الفرنسى هناك، وأوضح أن فرنسا لا تعترف بوجود قومية جزائرية أو عربية وتعتبر الجزائر أرضا فرنسية يسكنها فرنسيون ولكنهم يدينون بالإسلام.

وتأكيدا لكلامه أخرج جواز سفره قائلا: وانظر يا سعادة المدير إلى جواز سفرى هذا فهو كما ترى جواز سفر فرنسى يصفوننى فيه بأننى فرنسى إلا أن ديانتى هى الإسلام.

فأخذ مدير المكتب الجواز وأخذ يتفرس فيه بإمعان ويقلب صفحاته فى إعجاب ثم ناوله إلى مولود قاسم قائلا:

يا بختك.. ده أحسن جواز سفر فى العالم يا ريت أطول أنا يبقى عندى جواز سفر زى ده !!.

ولك أن تتصور أيها القارىء كيف كان وقع هذا التعليق على هؤلاء الفتية الذين كانوا يشتعلون حماسا والذى خرج من صفوفهم من قاد الثورة الجزائرية وقاتل الفرنسيين حتى شاهد خروج آخر فرنسى من الجزائر، فانقلب الاجتماع إلى مشادة علت فيها الأصوات . ويقول بومدين ضاحكا : إن الأمر انتهى بطردنا من الجامعة العربية شر طردة دون أن تعرض مظلمتنا التى جئنا من أجلها.

***

(٥)

الرئيس يتساءل هل علمتم لماذا أنا عميل فرنسي ؟

ما أن عاونت الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الأسبق على الجلوس فى الحرم النبوى وأخذت مكانى إلى جانبه حتى قال لى يمكنك أن تتركنى الآن فقد حضر التاريخ الإسلامى برمته فى ذهنى تتتابع مشاهده .. فها هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بيت أبو أيوب وها هى المدينة فى العصر النبوى ثم ها هى سقيفة بنى سعد وبيعة أبو بكر ثم ها هو عمر بن الخطاب يمشى وفى يده الدره وها هو الإمام الشهيد عثمان والثوار يتسورون عليه الجدران وها هو الإمام على كرم الله وجهه يصارع الفتنة الكبرى .. تركت الدكتور الزيات مع مشاهد التاريخ الإسلامى وتأملاته الدينية وعمدت إلى واجباتى الوظيفية .. فالسفير فى السعودية فى زمن الحج يمضى أكثر أوقاته ازدحاماً فضلا على أنه يؤدى المناسك مثل غيره إلا أن عليه تلالاً من المسئولية تنوء بالعصبة

أولى القوة .. لذلك فإننى كنت أطلق على هذا النوع من الحج .. حج Ex officu أى الحج بحكم المنصب .

لم أترك الدكتور الزيات كثيراً .. فقد كنت حريصاً على المداومة على الاتصال به والاطمئنان على أحواله .. فقد كان يحج وحيداً بعد وفاة زوجته وكان سنه قد تجاوز الخامسة والسبعين وكان مريضاً ..

وبعد أن انتهت المناسك الرئيسية بانتهاء يوم عرفة وبدأت أيام التشريق أى أيام الإقامة فى منى والتى تعد أيام راحة وعبادة هادئة وكان المسلمون الأوائل يصفونها بأنها أيام " أكل وشرب " .. ذهبت لزيارة د. الزيات فى مقر إقامته فى منى.. سعد بلقائى وقال لى اجلس أقص عليك ما حدث لى اليوم .." لقد تقدم إلى اليوم شخص وحيانى بترحاب شديد وأخذ يلح على ذاكرتى أن أتذكره دون جدوى إلى أن قال أنا (فلان ولنسميه سلمان لأننى لا أذكر الاسم الآن) صاحب المطعم اللبنانى الذى قابلك فى مطار إبيدجان بساحل العاج عام ١٩٦٨,

ويمضى الدكتور الزيات قائلاً "هنا فقط تذكرته وتذكرت المهمة حيث كنت أيامها المتحدث الرسمى باسم الدولة ورئيس

هيئة الاستعلامات وقد أوفدني الرئيس جمال عبد الناصر برسالة إلى الرئيس هوفيه بوانيه رئيس ساحل العاج (كوت دى ابفوار كما تعرف الآن بجميع اللغات الأخرى)". وكانت ساحل العاج ضمن جولة تضم جميع الدول الأفريقية التى كنا نتجاهلها قبل حرب ١٩٦٧ باعتبارها صنائع للاستعمار ولا جدوى من الاتصال بها .. إلا أن الفكر تغير بعد الحرب وقررنا فتح قنوات اتصال مع الجميع" رحبت ساحل العاج باستقبال مبعوث جمال عبد الناصر وتمت ترتيبات الزيارة من خلال بعثتي الدولتين (مصر وساحل العاج) فى نيويورك .. حيث لم نكن نتبادل التمثيل الدبلوماسى فى ذلك الوقت.

إلا أنه لسبب ما لم تصل البرقية الخاصة بموعد وصوله إلى المسئولين في ابيدجان فى الوقت المناسب ..ووصلت الطائرة إلى أبيدجان ولم يكن هناك أحد فى انتظاره. فوقف حائراً فى المطار لبضع دقائق يحاول التفاهم مع موظفى المطار الذين كانوا يعاملونه بشئ من الجفاء ونفاد الصبر .. إلى أن انشقت الأرض عن سلمان هذا وجاء مهرولاً كالصاروخ فى اتجاه الدكتور الزيات وهو يصيح بالفرنسية .. أهلا ممثل الزعيم عبد الناصر محرر أفريقيا والعالم العربى

.. أهلاً بمعالى الوزير المتحدث الرسمى باسم الجمهورية العربية المتحدة .. الأمر الذى لفت نظر الجميع حيث توقف موظفو المطار عن الجدال وأخذوا يتابعون المشهد .. وما أن اقترب منهم سلمان هذا حتى أخذ يعنفهم .. ألا تدرون مع من تتحدثون؟ .. افتحوا استراحة كبار الزوار فوراً .. فلو علم الرئيس بوانيه بما يحدث لمثل ناصر الآن فسيكون مصيركم السجن. اتصلوا فوراً الآن بالرئاسة وسوف ترون ماذا سيحدث .. سينقلب المطار رأساً على عقب .. كان لهذا المشهد الدرامى أثر عميق فى بث الرعب فى قلوب صغار الموظفين ، فأخذوا يقلبون جوازات السفر والأوراق الأخرى بعناية فائقة سرعان ما تحولت إلى اهتمام بالغ .. وقدموا للدكتور الزيات كل التسهيلات التى تقدم لكبار الزوار وقاموا بفتح غرفة كبار الزوار وكان سلمان يتقدم الوفد وهو ممسكا بجوازات سفر الدكتور الزيات وسكرتيره وما أن أجلسهم فى الاستراحة حتى استأذن للقيام بإنهاء الإجراءات بنفسه واستلام الحقائب مع السكرتير .

ويقول الدكتور الزيات " وعند خروجنا من المطار ركبنا فى سيارة سلمان اللبنانى وكان معه شاب لبنانى آخر ظننت أنه

السائق .. إلا أن سلمان تولى القيادة بنفسه .. وفى الطريق إلى المدينة سألته عن أحوال العرب فى ابيدجان والوضع الآن مقارنة بالماضى .. وأخذ يسرد المصاعب التى تواجههم خاصة فى مسائل الإقامة والاستقدام فهو صاحب مطعم لبنانى مثلا وعماد المطعم هو الطباخ ومع ذلك فلم يتمكن من الحصول على تأشيرة استقدام لطباخ واحد ثم ابتسم ابتسامة ماكرة، وأضاف قائلا : وذلك حتى اليوم .. حيث تمكنت بفضل وجودكم وبركته من إخراج الأخ "زهير" من المطار فى زحمة وصولكم .. وأشار إلى الشاب الذى ظننته سائقاً. فقد انتهز الأخ سلمان فرصة الضجة التى أحدثها فى المطار والتى أكسبته سلطة مؤقتة لإنهاء أوراق الطباخ الذى استقدمه من لبنان.

وبعد أن وصل الدكتورالزيات إلى الفندق أجرى الاتصالات اللازمة وتلقى الاعتذارات الواجبة وحصل على التأكيدات للمواعيد السابق الاتفاق عليها وعلى رأسها الموعد مع رئيس الجمهورية .. وعندما دخل على الرئيس بوانيه وجده وحيداً.. ليس معه وزير الخارجية ولا حتى مدون المحاضر .. وبدأ الرئيس حديثه قائلا : إنه تعمد أن يلقاه رأسا لرأس

كدليل على الاهتمام بهذا اللقاء فالرئيس عبد الناصر لا تكاد تدانيه شخصية أخرى فى أهميته وهو يجسد للأفارقة كل أحلامهم .. وزيارة ممثله الشخصى لنا أمر نعتز به ونوليه عظيم اهتمامنا حيث تتطلع إلى مزيد من الفهم وكثير من التعاون.

واستطرد رئيس الجمهورية قائلا .. ولكن قبل أن ابدأ حديثى حول هذه الموضوعات.. فإننى أرجوك أن تعدنى بشئ واحد.. وهو ألا تقاطعنى فى الكلام وتتركنى حتى أتم حديثى !! وقد أثارت هذه العبارة قدراً عظيماً من الدهشة ومن الترقب والحماس .. وعندما حاول الزيات أن يقول : إنه أمر طبيعى ألا أقاطع فخامتكم ولا ولن يخطر ببالى أن أفعل مثل هذا التصرف الخارج عن حدود اللياقة والأدب وأسلوب التخاطب مع الرؤساء .. قاطعه الرئيس قائلاً أنا لا أريد هذا الكلام الدبلوماسى أريد وعد شرف ألا تقاطعنى فى الكلام.. وبعد أن حصل على هذا الوعد بدأ هو فيه بوانيه حدثيه قائلا :

إنك يا سيادة الضيف المبجل مندوب فخامة الرئيس جمال عبد الناصر تتحدث الآن مع واحد من أكبر عملاء الاستعمار

.. عميل فرنسى يتحرك بتعليمات من باريس .. وعميل صهيونى اشترته المصالح اليهودية (حاول الزيات أن يتدخل فى الكلام فأسكته الرئيس مذكراً أياه بوعده). فقد بعت بلدى مقابل تنفيذ مخططات فرنسا فى أفريقيا وخدمة للمصالح الإسرائيلية وصمت الرئيس بوانيه لبرهة .. فانتهرها الزيات فرصة وقال هل أستطيع أن أتحدث الآن ؟ فقال له الرئيس لا .. لن تتحدث الآن .. ولكنى جمعت عدداً من أهم وزراء الدولة للاجتماع معى ومعكم على مائدة الغداء .. وهم بانتظارنا الآن وسنتحدث على الغداء.

على مائدة الغداء .. قال الرئيس بوانيه : إننى سأطلب إلى الوزراء الحاضرين أن يحدثونا عن الأحوال فى ساحل العاج حتى نأخذ فكرة عامة عن البلد .. وسأبدأ بوزير الخارجية .. ولكن لى شرط واحد وهو أن يتحدث كل وزير لغته الخاصة أو بلغة قبيلته هيا يا وزير الخارجية حدثنا عن علاقات ساحل العاج الخارجية .. فأخذ الوزير يتحدث بلغة غير مفهومة وبعد أن انتهى قال لى الرئيس هل فهمت شيئاً قلت لا .. ثم توجه إلى باقى الوزراء وسألهم نفس السؤال .. هل فهمتهم شئيا مما قاله زميلكم وزير الخارجية فأجابوا بالنفى فنظر

إلى الرئيس وقال : هل علمتم لماذا أنا " عميل فرنسى ؟ إنكم _ أى فى مصر _ تتهمونى بالعمالة لفرنسا لأننى من أشد أنصار نشر اللغة الفرنسية فى البلاد والتى لولاها لما استطعنا أن نتحدث مع بعضنا البعض حتى فى مجلس الوزراء !!

ثم طلب إعادة الكرة _ ولكن باللغة الفرنسية _ وقال يا وزير الاقتصاد والتجارة حدثنا عن علاقات ساحل العاج التجارية مع دول العالم وعن أهم شركائنا التجاريين ولنبدأ بإسرائيل والدول العربية.. ما حجم التجارة مع إسرائيل فذكر رقما (لا أذكره الآن) فأطرق الرئيس وقال يبدو فعلاً أننا عملاء لإسرائيل.. ولكن ما حجم تجارتنا مع المغرب العربى .. فذكر رقماً أعلى من الرقم الإسرائيلى .. فنظر الرئيس إلى الدكتور الزيات وقال أرأيت .. أنى عميل مغربى .

ودارت المناقشات على الطعام على هذا المنوال .. كلام ذو مغزى وفكاهات تحمل معانى .. وكان أهم هذه المعانى .. أنه ليس عميلا لفرنسا ولا لإسرائيل وأنه يقيم علاقات عادية مع جميع الدول .. وأن هناك مساحة كبيرة من إمكانيات التعاون مع مصر لولا أننا نقسم العالم إلى أصدقاء وأعداء .. ولا نقيم

التعاون إلا مع صديق ١٠٠٪ يرى ما نراه فى جميع الأمور .. بينما الأخرون يدرسون المواقف ويبحثون عن مساحات ولو صغيرة يمكن إقامة التعاون فيها .. وأنتم فى مصر .. لديكم مساحة عظيمة فى ساحل العاج وقابلة للاتساع .

وهكذا بدأت العلاقات مع ساحل العاج وافتتحت السفارة المصرية هناك وقدم السفير المصرى أوراق اعتماده إلى الرئيس بوانيه الذى ظل رئيسا للبلاد حتى أواخر التسعينات مع القرن الماضى والذى تمتعت بلاده خلال فترة حكمه باستقرار دام عشرات السنين.

الفهرس

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٧٤٥٦
I. S. B. N
977-07-0876-3

هـــذا الكتــاب

الكثيرون يجلسون في ساحة السياسة الدولية في مقاعد المتفرجين .. يشاهدون اللاعبين ولكنهم لا يشاركون فى اللعبة إلا بالهتاف والتهليل أو الصفير والشغب ..

وهذا الكتاب يجوب معك في ساحات الملاعب الدولية ويسمعك ضجيجها وهمساتها ويأخذك في جولة طويلة تقلب خلالها صفحات من الدبلوماسية المصرية.. من غرب أفريقيا . عندما كانت تطوى فيها اعلام الامبراطوريات الاستعمارية القديمة إلى جلسات مجلس الأمن فى نيويورك خلال حرب ١٩٦٧ وذلك في عرض حي . لما كان يدور فى الأروقة.. حيث تشاهد السفراء العرب وقد تحلقوا حول مندوب مصر يشككونه فى صحة التعليمات التى تلقاها من القاهرة بقبول وقف أطلاق النار..!!

وتستمع مع المؤلف إلي الملك فهد وهو يحكي كيف حاول صدام حسين اغراءه بضم دول الخليج الصغيرة إلي السعودية .. وأيضا وهو يحكي قصة من قصص اللامعقول عن قطعة أرض يمتلكها فى المعادى ونازعه في ملكيتها أحد الجنود السابقين فى الجيش المصرى..

ثم يأخذك الكتاب فى زيارة إلى ديكسيلاند في أعماق الجنوب الأمريكي التى دارت فى رحاها الحرب الأهلية الأمريكية.. واستمع إلى مضيفه الأمريكى وهو يشرح كيف أنك فى أمريكا تستطيع أن تشترى أو تؤجر أى شيء حتي المظاهرات السياسية .. وستعرف أيضا لماذا يحتاج بعض الساسة الأمريكيين إلى تأجير ضيوف على العشاء ؟!

ولعل من أهم فصول الكتاب هو الفصل الخاص بمفاوضات السلام المصرية الإسرائيلية الذي يحكي تفاصيل ما جرى فى اليوم الأخير بهذه المفاوضات وكيف حاول الوفد الإسرائيلى أن يجادل فى الترجمة العربية للمعاهدة بدءا بالعنوان وهل هي معاهدة صلح أم معاهدة سلام ؟!

ومن مفاوضات السلام إلى مفاوضات الحكم الذاتي الفلسطينى حيث يشتد الجدل «ويتشابه البقر» ويثار الاعتراض حتى على إسم فندق فلسطين !!

وهناك جولات أخرى من ربوع أيطاليا وبولندا واندونسيا وحكايات طريفة من حكايات المقهى الدبلوماسى...



أدبيات
نساء العرب
مواقف وطرائف ومعارك
الكعبة المشرفة
أدبيات
هيكل اليهودي الثالث
أدبيات
غاندى
مقاتل بلا حروب
مجدى سلامة
أدبيات
أحمد بهاء الدين
سيكولوجية الإرادة
من شرفات التاريخ
الشخصية المنتجة
مناظرات على الورق
أدبيات
طغاة قريش
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع